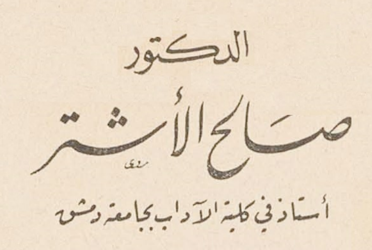


أندلسيات شوقي

بحث تطبيقي في
أدب شوقي في المنفى
وأثر الاندلس في
شخصيته وفنه

الطبعة الاولى

مطبعة جامعة دمشق

١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م

بسم الله الرحمن الرحيم



تمهيد

١ ــ من أبرز مظاهر الوعي في العالم العربي اليوم ، أن يدرك أبناؤه ، وهم لا يزالون يخوضون معارك النضال للقضاء على الاستعمار ، مكانةَ الأدب في موكب التحرير ، ودوره الخالد في إيقاظ الأمة العربية من سباتها العميق ، وتوحيدِ قواها المتفرقة ، وتحقيقِ بواكير النصر في تلك الوثبة الكريمة التي وثبتها في سورية ومصر والعراق شعوبٌ مناضلة ، وكان الأدب ــ والشعر بخاصة ــ يهز وجدانها ، ويثير مشاعرها ، ويشحذ أحاسيسها ، كلما جهد الاستعمار أن يبلّدها ويخدرها.

والحق أن صدى صوت شوقي كان يرن في أجواء العالم العربي ،

يهز ضمائر النائمين ، ويفتح أعينهم على الخطر ، ويرسم للأجيال طريق النضال الدامي :

وللحريةِ الحمراء بابٌ بكل يدٍ مضرجةٍ يُدَقُّ

ومن حق شوقي ، بعد أن دقت أيدي الشعوب المناضلة أبواب الحرية في دمشق والقاهرة وبغداد ، أن يعرف العرب للشاعر الكبير مكانه عند النصر ، فيتداعوا بعد ربع قرن من وفاته ، إلى تكريم ذكراه وإعلان فضله .

ولقد أردنا أن نسهم في إحياء ذكرى الشاعر العظيم بتقديم هذه الدراسة عن جانب من أدبه لايزال إلى اليوم غير مدروس ، ولعلّ هذا خيرُ تحية يمكننا أن نحييه بها في عيده

❀ ❀ ❀

٢ — نعرض في هذا الكتاب لأندلسيات شوقي ، فندرس من خلالها فترة من حياته كان لها أبلغ الاثر في تطوّر شخصيته وفنه ،وقد تعوّد الباحثون ،عندما يبلغون هذه المرحلة من حياة شوقي ، أن يرسلوا فيها نظرات سريعة طافية ، ثم تصدر منهم أحكام عامة ، يتحدثون فيها عن إبداعه في وصف أمجاد العرب في الأندلس والنواح على المجد العربي السليب .. ولا ينسون بعد هذا أن يعدّوا ذلك ميزة من المزايا التي بوّأت شوقي امارة الشعر في العصر الحديث !

وقد تبعت في هذا الكتاب منهجاً جديداً ، فحملت ديوان شوقي، وتركت باريس صيف عام ١٩٥٣ ، إلى اسبانيا ، إلى حيث يُتاح لي أن أشهد بعيني الشاعرَ المنفي وهو يتنقل في أرجاء الأندلس ، وأسمع بأذني صوته وهو يتغنى بأمجاد العرب في الفردوس المفقود ،ومثل هذا المنهج في الدراسة يفرض عليَّ أن أتتبع خطا الشاعر في كل مكان تنفّس فيه من أرض الأندلس ، وأوحى له بقصائده الأندلسية ، لأدرس تأثير ذلك في شعره خلال سنوات نفيه عن وطنه .

ولن نتحدث عن الجهود التي بذلناها في تحقيق هذه الدراسة بهذه الطريقة ، وحسبنا أننا وصلنا — فيما نعتقد — إلى تقديم بحث فيه عمق وجدة وطرافة على كثرة ما كتب الباحثون في شوقي وشعره .

❀ ❀ ❀

٣ — إذا كنا لا نستطيع أن نرافق شوقي منذ خروجه مع زوجه وأولاده وخدمه من قناة السويس ، ولا يمكننا أن نركب معهم البحر إلى مرسيليا فبرشلونة ، ففي استطاعتنا أن نقف في ميناء برشلونة الكبير في انتظار السفينة الاسبانية التي تقلهم .

وفي برشلونة سنقيم ما أقام شوقي ، نصحبه وأهله في رحلاتهم إلى ضواحيها ، ونعود دائماً إلى تلك الضاحية المشرفة على البحر الأبيض التي ينزلون في منزل من منازلها ،حيث يأوى الشاعر إلى المطالعة والقراءة،

كلما استبدت به الوحشة وفاض به الحنين إلى الوطن ، حتى إذا مل القراءة وترك الكتاب ،وخرج يتريّض في الحدائق أو يزور المتاحف، تبعناه نزورها معه ، ونرى انطباعات المشاهد في شاعريته وحسه .

وبعد أن تنقضي تلك السنوات الثلاث ، ويترك شوقي وأهله برشلونة إلى جنوبي اسبانيا ، نسير معه فنزور جزر الباليار القريبة ، ثم نغادرها عائدين إلى مدريد ، لنرافق الشاعر في طوافه بمكتباتها الشهيرة وقصورها ، حتى إذا رأينا بوادر الثورة المشتعلة في هذه المدينة بين العمال والحكومة أسرعنا مع الشاعر وأهله بالسفر إلى الأندلس.

وإذا مرّ شوقي بطليطلة مراً سريعاً لم يدعه يرى منها غير جسرها البالي وهي تُطل عليه[1] ، ففي وسعنا أن نشهد نحن في ساعات قليلة ذلك الجسر القديم الذي لا يزال يحتفظ باسمه العربي El-Alcantara وأن نطوف بأحياء المدينة الصغيرة وشوارعها الضيقة ، وبذلك المسجد المتهدّم الصغير الذي يقاوم أعمدته ومحرابه وسقفه يد الاهمال والبلى والخراب ، ثم نغادر المدينة على عجل لنلحق بشوقي وركبه في قرطبة ، ونزور معهم المسجد العظيم الذي شيده فيها عبد الرحمن الداخل، حيث يطالعنا أول أثر عربي ضخم في الاندلس في رحلتنا ، فيبهرنا جلاله ، وننحني أمام أطياف الماضي المجيد ، وهي تتراءى لعيني شوقي

---

(١) الشوقيات : ٢/٥٢ المقدمة النثرية لقصيدته (الرحلة إلى الاندلس)

من وراء هذه المدينة الزاهرة التي لم تعد غير قرية كبيرة قذرة[١]

وعندما نجد ركب الشاعر يتجه نحو اشبيليه ، قبل أن يُتاح له زيارة أطلال مدينة الزهراء في ضاحية قرطبة ، نرانا في اضطرار إلى التخلّف عنه ، لنلقي نظرة سريعة على مواطن الحفريات حيث يُرفع التراب عن الزهراء الدفينة تحته ، فتبين مسارب القصر وأقنية المياه ، ويعبق الجو بالذكريات ، وتطوف بالزائرين أطياف ولاّدة وابن زيدون :

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا   والأفق طلقٌ ووجهُ الأرض قد راقا

ونلحق بالشاعر في اشبيلية ، لنلازمه في نزهاته على ضفاف نهرها الكبير ، وفي وقفاته الطويلة في أبهاء (القصر) الذي لعبت فيه يد الدهر فغدا مزيجاً من الطرازين الشرقي والقوطي ، لعلّنا نستعيد مع الشاعر ظلال تلك الأيام المجيدة ، يوم كان القصر العبادي يتيه نضارة بالمعتمد وزوجته الرميكية وأمّه العبادية وابنته الشاعرة الجميلة بثينة !

ثم نرحل مع الشاعر إلى غرناطة ، ونشاركه طوافه بالقصور العربية الجميلة ، ونتتبع خطواته وهو يتنقّل في غرف (الحمراء) حتى

---

(١) انظر (أبي شوقي) لحسين شوقي ص ٦٠

إذا وقف عند (مجلس السباع) مأخوذاً بالروعة والجلالة والفخامة ، أصغينا إلى الشعر ، ينساب من فمه ، حزيناً باكياً ، يصور الماضي الجميل الزاهي ، ويفيض به الحنين إلى ربوعه ودياره ، فيناجي وطنه البعيد أرق مناجاة وأعذبها .

وعندما يركب الشاعر وصحبه البحر عائدين إلى مصر ، نكون في وداعه ، لنعود نحن إلى باريس ، وتتلقّى أخبار الشاعر العائد من منفاه ، منذ وصوله وأهله إلى قناة السويس ، وركوبه القطار إلى القاهرة ، حيث ضاقت محطتها بآلاف الطلبة المنتظرين ، وقد استبدّت بهم اللهفة إلى استقبال الشاعر الكبير ، حتى إذا أطلّ عليهم حملوه على أعناقهم في ثورة من الحماسة والحب والتكريم .

❀ ❀ ❀

٤ ـــ سنحاول إذاً في هذا الكتاب أن ندرس إنتاج شوقي الأندلسي دراسة تطبيقية ، فنعرض لكل أثر منه في الجوّ الذي شهد ولادته ، ونقارن بين ما قاله الشاعر وما رأته عيناه ، لنرى الرصيد الأندلسي في أبياته ، ونمتحن طبيعة العوامل التي كانت تحيط به في منفاه ، ونرسم بدقة الخطّ البياني لِما أصاب شخصية الشاعر وفنه من تطوّر خلال هذه المرحلة العصيبة من تاريخ حياته .. وهذا يعني أن نعود إلى

شعر شوقي قبل المنفى وبعده أيضاً ، ليتّضح لنا تأثير الاندلس في شاعريته وشخصيته وفنه .

وعلى هذا لا تكتمل هذه الدراسة لأندلسيات شوقي إلا باستعراض الفصول التالية :

حياة الشاعر في المنفى

دراسة أدبه في المنفى

تأثير الأندلس في شاعريته

وأهم مصادرنا في هذه الدراسة ديوان شوقي وآثاره وشهران قضيناهما في صحبة الديوان، في ربوع تلك البلاد من أندلسنا المغصوب.

وإلى روح شوقي الخالد نهدي هذه النفحة الأندلسية ، فهي منه وإليه .

دمشق ايلول ١٩٥٨ — صالح الأشتر

الفصل الأول

حياة شوقي في المنفى[1]

- ١ -

الحرب الكونية الأولى تعمّ الأرض ، والدماء تسيل في كل جانب منها ، وشاعر عربي يُزعج عن وطنه فيغادره في هذه الفترة الحالكة منفياً إلى اسبانيا ، فمن هو هذا الشاعر وما هي طبيعة الأحوال التي أجبرته على مغادرة وطنه ؟

ولد أحمد شوقي في القاهرة سنة ١٨٦٨ ، بباب الخديوي اسماعيل — كما يقول هو نفسه[2] — وفي رعاية آل بيته . أصل والده من أكراد الجزيرة ، وجدّ والدته تركي من الأناضول تزوّج من معتوقة

---

(١) انظر بحثنا عن (حياة شوقي في الاندلس) في الكتاب السنوي لجماعة الأبحاث في الجامعة السورية عام ١٩٥٠ ص ٥٢ — ٧٣

(٢) يقول أأخون اسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب اسماعيلا
الشوقيات ٢١٦/١

يونانية من بلاد الموره ، وجدته لأبيه جركسية ، وبذلك تكون الدماء التي تجري في عروق الشاعر مزيجاً عجيباً من العربية والكردية والتركية واليونانية والجركسية !

ويحدثنا الشاعر نفسه عن طفولته[1] ، منذ كان يغدو إلى مكتب الشيخ صالح ، وهو في الرابعة من عمره ، إلى أن انتقل إلى المبتديان فالتجهيزية ، إلى أن رأى له والده أن يدرس القوانين والشرائع ، فأدخله مدرسة الحقوق ليقضي في قسم الترجمة فيها سنتين، ينال في نهايتها « الشهادة النهائية في فن الترجمة ».

والشاعر نفسه يحدثنا عن اتصاله بعد ذلك بالخديوي توفيق وكيف أدخله في « خدمته الشريفة[2] » قبل أن يرسله إلى فرنسا للدراسة العالية

ويسافر شوقي إلى فرنسا وسنّه لمّا تبلغ العشرين ، ويختار دراسة الحقوق ، ويقضي من أجلها عامين في مونبليه وعامين في باريس ، وكان خلال هذه السنوات يرسل إلى الخديوي قصائد المديح ، وينتهز فرصة العطلات الصيفية ليقوم برحلات إلى جنوبي فرنسا ، وإلى انكلترا والجزائر ، ويظل شوقي في باريس بعد انتهاء دراسته مدة

---

(١) انظر مقدمة الجزء الأول من ديوان شوقي المطبوع سنة ١٩٠٠

(٢) مقدمة الشوقيات (الطبعة الأولى القديمة) ص ١٨

ستة أشهر ، أراد منه الخديوي فيها أن يزداد اطلاعاً على أجواء العاصمة الفرنسية .

ويعود الشاعر الشاب بعد ذلك إلى مصر وهو « نضو فراق تهزه إليها الأشواق[1] » ليلقى من الخديوي الجديد إعراضاً عن شعره ، ذلك أن عباساً الذي خلف أباه كان ذا ثقافة أوربية صرفة،فلم يجد شعر شوقي إلى قلبه سبيلا ، ولكن الشاعر لم ييأس ، واستطاع بمساعدة بطرس غالي باشا أن يجد عملا في الخارجية لمدة لم يلبث بعدها الخديوي أن قرّبه إليه، وأناط به بعض المهام ، وأصبح شوقي« شاعر العزيز » أو « شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية[2] » وهذا ما كان يتمناه ويسعى جهده إليه .

ويرسله الخديوي عباس عام ١٨٩٤ إلى جنيف لينوب عن الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين ، وهناك يلقي شوقي مطوّلته الهمزية ، ثم يغتنم الفرصة فيقيم في سويسرا شهراً يغادرها بعده إلى بلجيكا ، وفي طريق عودته إلى الوطن يعرج على الآستانة .

وفي عام ١٨٩٧ يموت والد شوقي فيرثيه الشاعر رثاء حزيناً ، وفي

---

(١) المصدر السابق ص ٢١

(٢) الجزء الاول من الشوقيات الطبعة القديمة : (نظم أحمد شوقي شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية !)

هذه السنة ينشر شوقي روايتين نثريتين استمد مادتها من تاريخ الفراعنة وبعد ثلاث سنوات ينشر رواية نثرية ثالثة (الخائنة أو ورقة الآس) وهذه الروايات الثلاث محاولات ابتدائية غير ناجحة عرّضت كاتبها للنقد الشديد [١]

وتمر الأعوام وشوقي ناعم في ظل (القصر)، يصف حفلاته ، ويمدح أمراءه ، ويتغنى بمجد البيت العلوي وأياديه على مصر ! ويرافق الشاعر الخديوي إلى الآستانة ، ويمدح السلطان العثماني، ويتغنى بالطبيعة على ضفاف البسفور ، ويعود إلى مصر لينظم عام ١٩٠٥ قصيدة في « نجاة الدين » بنجاة السلطان عبد الحميد من القذيفة التي ألقاها العثمانيون الأحرار عليه !

وفي العام التالي تُبتلى مصر بمجازر دنشواي ، فيشنق الأبرياء ، ويُجلد المساكين ، وتثور ثائرة الشعب ، وتنطلق ألسنة الشعراء كحافظ ابراهيم وأحمد محرم وغيرهما ، ولسان شاعر الخديوي صامت لا يتحرّك إلا بعد مرور عام كامل على المحنة ، عندما كان الشعور الوطني ينهض من سباته على صرخات الشاب الوطني البطل « مصطفى كامل » وخطبه المؤثرة [٢] ، ودروس الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

---

(١) أخذ الشيخ ابراهيم اليازجي على شوقي فيها مآخذ كثيرة ، فانبرى الأمير شكيب أرسلان للرد عليه والانتصار لصديقه الشاعر

(٢) تاريخ المسألة المصرية لرتشتين ص ٣٤٥

وفي عام ١٩٠٨ تُفجع مصر بموت الزعيم مصطفى كامل ، فيرثيه شوقي ويبكي فيه صديقاً عادياً ولا يستطيع أن يبكي فيه زعيماً وطنياً وصاحب رسالة وداعي نهضة ، لأن القصر لا يرضيه ذلك !

وفي هذا العام يُعلَن الدستور العثماني ، فتبتهج الدنيا به ، ويتحرق المصريون شوقاً إلى الحياة النيابية ، ولكن عبد الحميد يحاول تعطيل الدستور ، وينتهي به الأمر إلى العزل عام ١٩٠٩ ، وعندئذ تسيل دموع شوقي حزناً على سقوط الطاغية ، يبكيه « بالدمع الغزير[1] » ويجلّه عن شماتة الأعداء .

كان شوقي آنذاك غارقاً في فيض من النعيم والجاه والترف، وكانت داره (كرمة ابن هانىء) « مثابة طلاب الجامعات ومورد المستشفعين من كل ناحية ، صغار الناس وكبارهم في هذا بمنزلة سواء ، فلقد كانت اشارته حكماً ، وطاعته عند أكثر الحكام من بعض المغانم[2] » وكانت الكرمة أيضاً مجمع الأدباء والشعراء والأصدقاء ، يتناشدون فيها الشعر ، ويتباحثون في الادب والنقد، ويلقون من صاحب الكرمة أجمل اللطف وأكرم السخاء

وعندما يُقبل عام ١٩١٤ ، وتبتلى الانسانية بأهوال الحرب العالمية يكون شوقي وأسرته عند إعلانها في الآستانة ، يلازم سرير الخديوي

---

(١) الشوقيات ١٣٦/١ لو تستطيع إجابة لبكتك بالدمع الغزير

(٢) (شوقي) مقالة لعبد العزيز البشرى في الرسالة عدد ٣٧ سنة ١٩٣٤

الذي كان يعاني آلام الجراح بعد حادث إطلاق الرصاص عليه ، و « قد أراد شوقي أن يبقى إلى جانب الخديوي ، ولكنه ألح عليه في العودة ، لأن تركيا ستنضم إلى الألمان ، وستنقطع المواصلات مع مصر [١] »

ويعود شوقي إلى مصر ، وإذا الانجليز يعلنون الحماية عليها في الثامن عشر من ايلول سنة ١٩١٤ ، ويعلنون في اليوم التالي عزل الخديوي عباس ذي الميول التركية الالمانية ، ويحلون محله السلطان حسين كامل ، أحد أبناء اسماعيل والمخلص أشد الإخلاص للسياسة الانجليزية [٢]

إن صلة شوقي بالخديوي توفيق وابنه الخديوي عباس دفعته إلى الوقوف موقف المدافع عن الخديوي المعزول، إلا أنه كان في موقفه كثير من القلق والتردد ، ذلك أنه طلع على الناس بعد تولية السلطان حسين بقصيدة [٣] غريبة حائرة الغاية ، فيها مدح للسلطان الجديد [٤] ، وفيها بعض ذم للعهد السابق [٥] ، وفيها مدح للحلفاء الأحرار

---

(١) أبي شوقي لحسين شوقي ص ٢٨

(٢) انظر L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de1610 — 1930 par Henri Pérès ص ١٠١

(٣) الشوقيات ١/٢١٤ — ٢١٨ قصيدة عنوانها (السلطان حسين كامل)

(٤) وأتو بكابرها وشيخ ملوكها ملكاً عليها صالحاً مأمولا

(٥) هل كان ذاك العهدُ إلا موقفاً للسلطتين وللبلاد وبيلا

وعواطفهم الراقية[١] ، وفيها وفاء لآل اسماعيل[٢] ، وفيها تصبير للناس على بلاء الحماية لأنه قضاء مقدّر[٣] . ولكن فيها إلى جانب ذلك نفثات نفس متألمة على ما دهى دولة الهلال العثمانية

وهو العليم بأن قلبيَ مُوجَع   وجعاً كداء الثاكلات دخيلا
مما أصاب الخلق في أبنائهم   ودهى الهلال ممالكاً وقبيلا

ولم تطمئن السلطة العسكرية إلى موقف الشاعر ، وخافت أن يستثير بشعره حماسة المواطنين . فأمرت بنفي شوقي من مصر .

- ٢ -

هذا إذاً هو الشاعر العربي الذي تأمره سلطة الاحتلال في مصر سنة ١٩١٥ بأن يغادر أرض الوطن إلى أي بلد محايد .

استقبل شوقي هذا الأمر بعض الارتياح ، « لينجو من الدسائس[٤] » ولكيلا يتألم من انصراف الأصدقاء عن (الكرمة) بعد أن أصبحت هدفاً لتفتيش السلطة ومضايقتها في كل حين .. وعند

---

(١) حلفاؤنا الأحرار إلاّ أنهم   أرقى الشعوب عواطفاً وميولا
(٢) أأخون إسماعيل في أبنائه   ولقد ولدت بباب اسماعيلا
(٣) ياأهل مصرَ كِلوا الأمور لربّكم   فالله خيرٌ موئلًا ووكيلا
(٤) انظر (أبي شوقي) ص ٢٩ .

ركوبه القطار من محطة القاهرة لم يجد شوقي حوله من المودّعين إلا عدداً جدّ قليل من أقاربه وأصدقائه .

وغادرت السفينة الاسبانية القادمة من الفيليبين ميناء السويس بعد أن أقلّت منه بعض الركاب ، وفيهم الشاعر المنفي وزوجه وولداه علي وحسين وابنته أمينة وحفيدته منها والمربية التركية وخادمتان والطاهي [١]

لم تكن السفينة على شيء من الترف أبداً ، بل كانت سفينة بضاعة ، وكان الشاعر وأهله وحاشيته مضطرين إلى ركوبها ، فليس من سفينة غيرها آنذاك ، والسلطة لا تسمح بالتريث والانتظار

وعندما كانت السفينة تجتاز قناة السويس كتب شوقي أول أثر أدبي له من آثار المنفى وهو قصيدته النثرية التي سماها « قناة السويس[٢] » ، وهذا هو الأثر الوحيد الذي يعيننا على دراسة نفسية الشاعر المنفي عند مغادرته أرض الوطن .

ولن يمضي يوم واحد على خروج السفينة من السويس ومغادرتها بورسعيد حتى تقبل عاصفة هوجاء ، تجعل السفينة أرجوحة في أيدي الأمواج ، كما يصفها أحد أولاد شوقي [٣]

---

١ – انظر المصدر السابق ص ٣٣

٢ – « كتاب (أسواق الذهب) لشوقي ص ٢٦ – ٣٥

٣ – انظر أبي شوقي : ص ٣٤

وتستمر العاصفة يومين كاملين ، ويُمضي ركاب السفينة ليلة من أروع الليالي ، وكان شوقي يرى بكاء الركاب ويسمع صراخهم واستغاثتهم، فيصور له إحساسه الشاعري عظم المصيبة ، فيرتعد رعباً ، وكان «كلما نظر إلى ولديه علي وحسين ازداد رعبه وطار لبه[1] » .. وتنقشع العاصفة أخيراً بعد أن ضحى ربان السفينة بشحنة الثيران التي كانت في طريقها إلى ملاعب برشلونة ..

كان شوقي يفكر في ساعات الخطر بأمه التي خلفها في مصر مريضة ، لرغبتها في البقاء هناك[2] ، ولعل « شعوراً خفياً كان يوحي اليه أنه لن يراها بعد ![3] »

ووصلت السفينة إلى مارسيليا ثم تابعت رحلتها إلى برشلونة .

— ٣ —

اختار شوقي برشلونة ليقيم فيها مدة نفيه لأنها الميناء الوحيد القريب المحايد على البحر الأبيض ، الذي يتيح له العودة بسرعة إلى مصر ، عندما تسمح له السلطات فيها بذلك ؛ ذلك أن الشاعر لم يكن يظن أنه

---

١ — انظر (اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء) لأحمد عبد الوهاب أبي العز ص ٧١
٢ — المصدر السابق ص : ٣١
٣ — أبي شوقي ص ٢٩

سيقيم في برشلونة فترة طويلة ، وأن أقرباءه الذين ودعوه في محطة القاهرة كانوا يظنون أن الحرب لن تطول أكثر من ستة أشهر ، فالجيوش التركية تتأهب « لتحرير مصر من هؤلاء الانكليز الشياطين [١] » ولن تتأخر عودة الشاعر المنفيّ إلى وطنه ! أمل خادعٌ ، ووهمٌ قاسٍ ، فالقدر كان يشاء لشوقي وأهله إقامة طويلة في برشلونة ، تمتد ماامتد أمد الحرب .. وبعد إقامة عدة أسابيع في أحد فنادق المدينة اضطر شوقي إلى استئجار منزل في ضاحية من ضواحي برشلونة تدعى « فلفدريرا » [٢] ، ذلك أن نفقات الحياة في الفندق لأسرة كبيرة تتطلب من الشاعر أن يبسط يده كلّ البسط ، على حين أن النقود التي كان يرسلها إليه وكيله في مصر كانت محددة بأمر السلطة العسكرية [٣] !

تقع ضاحية « فلفدريرا » فوق رابية عالية مرتفعة كثيراً عن قلب المدينة ، يمكن لشوقي أن يشرف منها على البحر الأبيض المتوسط ، ويرى السفن تستقبل ميناء برشلونة وتودعه ، ويسمع صفيرها الحاد ليل نهار ..

كان شوقي كلما رنّت البواخر أو (عوت [٤]) في أول الليل أو بعد

---

١ — المصدر السابق ص ٣١

٢ — الحلل السندسية لشكيب أرسلان : ٢/٢٧٨

٣ — أبي شوقي : ٣٧ — ٣٨ وذكرى الشاعرين ص ٣٣٣

٤ — الشوقيات : ٢/٥٤ مستطار إذا البواخر رنّت
أوّل الليل أو عوت بعد جرس

طائفة منه ، استُطير قلبه ، وذكر مصر وفاض حنين قلبه إلى وطنه ، وهو لايدري متى يعود اليه ، « ثم هو لايدري إذا عاد أيقرّ قراره فيلقى عصا التسيار ، أم تعصف به وشاية جديـدة تحمله إلى المنفى من جديد ! [١] »

وعندما تتسلل أشعة الصباح لتغمر بالنور برشلونة ، وهي نائمةعند أقدام البحر ، والجبال من حولها ، تحنو عليها بغاباتها ذات « الرائحة الذكية العجيبة [٢] » التي تفوح من أشجار الصنوبر ، كان شوقي ينهض من فراشه مكدود الجسم ، لم ينم من الليل إلا سويعات !

وتمر الأيام بطيئة ثقيلة الخطوة ، والحرب لاتنتهي ، وأحلام الشاعر بالعودة إلى وطنه بدأت تذوي في حنايا نفسه ، وصبغت أحاسيسه بالقتومة والكآبة ، فماذا يفعل ، وكيف يُمضي هذه الأيام ؟

إن برشلونة مدينة كبيرة عامرة بالحياة والحركة والنشاط ، وهي العاصمة الثانية لاسبانيا ، بل هي أكبر من العاصمة مدريد نفسها [٣] ، وعلى المدينة طابع من الجمال والنضارة ، فباستطاعة شوقي إذاً ألاّ يملّ الحياة فيها ، فله أن يقضي فترة من نهاره في حديقة برشلونة الكبرى ،

---

١ — الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك ١٤٥

٢ — أبي شوقي ص ٥١

٣ - ابي شوقي ٥٣

فهي « من أبهى حدائق أوربا[١] » ، وله أن يزور المتاحف القريبة من الحديقة .. فإذا لم تطب نفسه لذلك كله ، فانْ نزهة قصيرة يقوم بها مع أسرته في ضواحي برشلونة الفاتنة ، كفيلة بالترويح عن نفسه ..

والسهر في اسبانيامغرٍ ، وبخاصة في برشلونة « لأن أهلها من أكثر الناس حباً للمرح والسرور ، ولأن ملاهيها كانت تظل مفتحة الأبواب حتى .. صياح الديك ! [٢] »

ثم ماذا ؟ إن الأيام تمر ثقيلةً بطيئة ، والغربة تزيد في بطئها ، وخوف الشاعر من انقطاع المال عنه وعن أسرته لا يزايله أبداً ، فللحرب ظروف قاسية لا ترحم ، فإذالم يصل المال إليه فكيف يعيش وأسرته الكبيرة ! إنه يرهن حلي زوجته وابنته دون ريب ، كما اضطر أن يفعل عندما انقطع عنه المال فعلاً طوال ستة أشهر ، على أثر ما تناقلته جرائد لندن من «أنّ شاعراً عربياً كبيراً مقيماً في اسبانيا يحرض عرب مراكش على محاربة الحلفاء ![٣] » وظنت السلطة العسكرية الانكليزية أنه شوقي ، فانتقمت منه بمنع المال عنه ، ولولا تدخل السفير البريطاني في مدريد ، تلبية لرجاء الشاعر المنفي ، وكان شوقي قد عرفه في برشلونه ، لما سمحت السلطة بإرسال المال ثانية إليه .

---

١ — الحلل السندسية : ٢٧٨/٢

٢ — ابي شوقي ٣٦

٣ — أبي شوقي ٥٣

كان خوف شوقي هذا يثير في نفسه المرارة والألم، كما كان يأكل من طاقته الشعرية، حتى إذا انصرف إلى الشعر جاءت أبياته مغمورة في جوٍ من الكآبة والحزن العميق[١]

كان منزل الشاعر المنفي في برشلونة مدرسة لتعلم اللغات المختلفة: فمدرس يحضر الى المنزل ليعلم ولدي شوقي علياً وأمينة اللغة الفرنسية، ومدرسة تحضر لتعلم حسيناً اللغة الألمانية، وشوقي يتعلم الاسبانية، وإن ظل نطقه بها غير سليم، وهو نفسه يعلم أولاده اللغة العربية طوال مدة المنفى[٢]

ويبدو أن الشعر كان خير ما يعين الشاعر على نسيان همومه، فهو يدفع الملل عن نفسه بنظم الشعر، كما يصرح في مقدمة المقطوعات التي كان ينظمها آنذاك عن (دول العرب وعظماء الاسلام):

لمّا رمى الله بهذي الحربِ | على بني الشرق وأهلِ الغربِ
تحرّكت سواكنُ الأقدارِ | واطّردتْ عواملُ الأكدار
وحكم اللهُ بهجرةِ الوطنْ | وطالما ابتلى بها أهل الفطن
فكنتُ أستعدي على الهمومِ | بناتِ فكرٍ ليس بالمهموم

١ — انظر مقالاً عن (شوقي في الاندلس) لأحمد الشايب في كتابه (أبحاث ومقالات).

٢ — أبي شوقي ٤٣

أستدفـعُ الفراغ والعطـاله وبطلٌ من يقتـلُ البطـالهْ

الخ ...»[1]

وعندما تضطرم عاطفة الحنين الى الوطن في قلب الشاعر ، يتدفق الشعر ، الشعر لا النظم ، على لسانه ، يبكي فيه غربته ويشكو آلامه ووحشته ، ويرسله الى أصحابـه في مصر ، يسألهم قطرات من مـاء النيل يبلّ به أحشاءه الصادية ، فكل المناهل بعد النيل آسنة ، ولكن أين ماء النيل ...

يقول شوقي في رسالته إلى حافظ ابراهيم[2] سنة ١٩١٧ :

يا ساكني مصر إنّا لا نزال على عهد الوفاء ـ وإن غبنا ـ مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نبلّ بـه أحشاءَ صادينـا
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعـد النيلَ إلا عن أمانينـا

ويجيب حافظ على رسالة شوقي ، مؤكداً له أن صحبه في مصر لا يطيب لهم بعده ورد، ولا يهنأ لهم عيش :

عجبت للنيل يدري أن بلبله صادٍ ويسقي ربا مصرٍ ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب موردُه ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا وإن كنا مقيمينا !

---

١ ـــ دول العرب وعظماء الاسلام ص ٦

٢ ـــ ديوان حافظ ابراهيم ١/١٨٦

وفي السنة نفسها يرسل شوقي إلى اسماعيل صبري بيتين من منفاه، يعرضهما عليه[1] :

ياساريَ البرق يرمي عن جوانحنا   بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا
ترقرق الماء في عين السماء وما   غاض الأسى فخضبنا الارض باكينا

فيجيبه اسماعيل صبري بأبيات جميلة ، يسأله فيها عما رأى في أطلال قرطبة ، ومن أين لاسماعيل صبري أن يعرف آنذاك أن الشاعر المنفي لم يغادر بعدُ برشلونة ، ولم يرَ من الأندلس شيئاً إلى ذلك الحين !

بأفق أندلسٍ برق يحيّنـا   يبيت يضحك منا وهو يبكينا

فهل تبيّنتَ في أطلال قرطبةٍ   في دار ولادةٍ دمعَ ابن زيدونا[2]

يا آل ودي عودوا لا عدمتكمُ   وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا
يانسمةً ضمخت أذيالهَـا سحراً   أزهارُ أندلسٍ ، هبّي بوادينـا

والبيتـان الـلذان أرسل شوقي يعرضهما على اسماعيـل صبري، هما من قصيدة تفيض باللوعة ، ويمتزج فيها دمع العين بدم القلب ، يخاطب شوقي بها الطير والبرق الساري والنسائم المعطرة التي تحمل إليه

---

١ ـــ ديوان اسماعيل صبري ١٢٧ – ١٢٨

٢ ـــ هذا البيت غير موجود في ديوان اسماعيل صبري ،وهو في (الحديقة) لمحب الدين الخطيب ٥/٢٧٤

مع السحر من وادي النيل شذاها العطر .. وفي آخر القصيدة تلفحنا زفرة يحرقها الشوق والحنين ، يرسلها الشاعر الغريب الى أمه المريضة بحلوان ، راجياً أن يحفظها الله وديعة له حتى يعود :

كنز بحلوانَ عند الله نطلبه   خير الودائع من خير المؤدينا[1]

ولكن متى يعود ؟ ودون العودة أهوال حرب كونية لا نهاية لها ، وما على شوقي إلا أن يروض نفسه على الصبر ، وأن يغرق آلامه في الشعر — كما رأينا — أو في المطالعة والقراءة ، فالكتب التي حملها معه من مصر كفيلة بأن تعرض لعيني الشاعر المنفي صورة زاهية لمجد العرب في الأندلس[2] ... وعلى شوقي أن يكتفي بما حمل من كتب وألا يطلب من أصحابه بمصر أن يزيدوه منها ، فالرقيب العسكري في القاهرة يمنع إرسال الكتب ، أية كتب ، إليه[3]

كان شوقي إذاً ينصرف إلى المطالعة في كتب تاريخ العرب والاسلام في الأندلس ، وكانت آفاق جديدة تغمر نفسه بالنور ، وكان روح جديد عربي خالص العروبة يتسلل إلى شاعريته ، ولن تظهر آثار

---

١ — الشوقيات ٢/١٣٢

٢ — كتب إليّ الأستاذ حسين شوقي يُعلمني أن والده قد حمل معه إلى المنفى عدداً من الكتب ، من بينها (نفح الطيب) للمقّري .

(٣) — طلب شوقي من صديقه أحمد زكي باشا بعض الكتب ، فأرسلها إليه ، ولكن الرقيب العسكري ردّها إلى مرسلها في اليوم التالي : ذكرى الشاعرين ٣٣٣

ذلك في برشلونه ، ذلك أنه ليس فيها آثار إسلامية عربية تثير وحي شاعرية شوقي ، والتاريخ يحكي لنا أن الحكم العربي للمنطقة الشمالية من الجزيرة الايبيرية كان مضطرباً ، فلم يُتح للعرب أن يشيدوا روائع آثارهم فيها ، فظلت برشلونة ، على الرغم من أن العرب سكنوها أكثر من قرن[1] ، محرومة من طابع فنهم ، وإلى اليوم يبدو الحي القديم في برشلونة بأبنيته القوطية الطراز ، كأنه قطعة من تاريخ قديم ، ينكر في تحدٍ وإصرار أن العرب مروا يوماً بذلك المكان !

يجب أن ننتظر إذاً خروج شوقي من برشلونة وسفره إلى الاندلس، وطوافه بآثار العرب الخالدة فيها لنسمع صدى قراءاته في تلك الكتب ، ونصغي إلى شاعريته وقد هاجتها أطياف ذلك الماضي المجيد ، وهكذا تكون سنوات حياته في برشلونة فترة تعبئة ثقافية ووجدانية، ألمَّ خلالها شاعرنا المنفي بتاريخ العرب في الاندلس خير إلمام ، وصهرت نفسه الحساسة آلامُ الغربة ، وأرهفها الحنين الى الأهل والوطن .

لقد نسي الشاعر طوال مقامه في برشلونة أميره الخديوي عباساً ، ولكن الخديوي لم ينس شاعره ، فكتب إليه من فيينا « بما يفيد أنه

---

(١) — استولى العرب عليها عام ٧١٣ عندما غزاها موسى بن نصير أول مرة ، وسموها (برشينونا) ثم شاعت برشلونة ، لكن شارلمان لم يلبث ان استردها عام ٨٠١ ، ثم آلت اليهم ثانية عام ٨٥٦ وظلت تحتهم حتى أغار الفرنجة عليها للمرة الأخيرة عام ٩٨٥

إذا رغب في اللحاق به ، فسموه مستعد أن يُخطر السفارة النمساوية في مدريد، كي تيسر له السفر في إحدى الغواصات الألمانية التي كانت تغدو وتروح في موانيءاسبانيا، لتأخذ ما يلزمها من وقود وزاد..[1]» غير أن الشاعر لم ينشط لتلبية دعوةالخديوي ، فاعتذر إليه وآثرالبقاء الى جانب أهله .

مثل هذا الاعتذار هامٌ في تصوير الانقلاب النفسي الذي يعانيه الشاعر المنفي ، فكأنه لم يعد عند نفسه شاعر « الحضرة الفخيمة الخديوية » ، وهذه أولى خطوات الانطلاق من قيود (القصر) وأولى بوادر التطور في شخصية الشاعر الرسمي !

وأقبل عام ١٩١٨ ، يحمل في أواخره راية السلام ، فأعلنت الهدنة وهدأ صوت المدافع ، وقفز قلب شاعرنا فرحاً واستبشاراً ! لقد جاءت أخيراً اللحظة المنتظرة منذ بعيد ، وآن للمنفي أن يعود إلى وطنه ، دون ريث أو إبطاء ، ليرى تلك العجوز التي خلفها في حلوان مريضة ، قبل أن يسبقه اليها الموت ... سيعود إذاً إلى مصر ،وستعود ليالي الكرمة من جديد ، و . . . ولكن برقية جاءت من مصر ، تحمل الى الشاعر خبر ما كان يخشاه ، فانقلبت الفرحة ترحة ، وارتمى الشاعر البائس عند قراءة البرقية « على المقعد هامداً ، محبوس

---

(١) — أبي شوقي ص ٨٨

الريق ، ممسوك الدمع[١] » ولم يسعفه البكاء إلا بعد ساعات « أخذ لسانه يتحرك فيها بالرثاء ، وعيناه تتدفقان بالدموع ، ويده تسطر أنات قلبه[١] ».. واحسرتاه! لقد ماتت مريضة حلوان ، ماتت قبل أن يراها على أن اللقاء كان يُظن قريباً ، كما ماتت جدة المتنبي فرحاً برسالة حفيدها ، قتيلة الشوق والسرور لقرب اللقاء :

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما

أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى[٢]

ويبدو أن الشاعر أراد أن يتعجل العودة إلى مصر ، ولكن (السلطات المصرية) لم تسمح له[٣] .. وما دامت القيود المالية قد أزيلت،وأصبح المال يصل الى شوقي وافراً من وكيله في مصر ، وما دام الشاعر المنفي لا يستطيع مغادرة برشلونة إلى مصر ، فلا بأس من أن يغادرها إلى جنوبي اسبانيا ، إلى الجنة العربية الضائعة ، إلى الأندلس

— ٤ —

غادر شوقي وأهله برشلونة على باخرة سريعة الى جزر الباليار[٤] ،

---

١ — اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ص ٣١

٢ — الشوقيات : ١٤٦/٣

٣ — أبي شوقي ص ٥٤

٤ — المصدر السابق : ص ٥٥

وبزيارة هذه الجزر القريبة من برشلونة يبدأ تجوال شوقي في إسبانيا بعد ذلك المكث الطويل في برشلونة ، ويقضي شوقي في إحدى هذه الجزر (ميورقه) وفي قرية « بلما » الجميلة أسبوعاً يمر كأنه حلم ، وأكثر رواد هذه الجزيرة فنانون ، يبحثون عن المناظر الطبيعية في هذه البقعة الجميلة التي لا مثيل لها [١] ، أو شباب حديثو عهد بالزواج، يبحثون عن الحب في قلب الطبيعة الفاتنة ،ويقضون شهر العسل في أحضانها

ويسافر شوقي بعد ذلك إلى مدريد [٢] ، عاصمة اسبانيا .

ومدريد اليوم هي (مجريط) العربية ، بناها أجدادنا العرب في شمالي الاندلس ليجعلوا منها قلعة في وجه القشتاليين [٣] ، ومن أين لهم أن يعلموا آنذاك أنهم يبنون عاصمة لملوك الاسبان ، وأولهم فيليب الثاني ، الملك المتدين المتعصب الذي نشطت في عهده محاكم التفتيش الممقوته،وبلا فيها قساوسة اسبانيا البلاء الحسن !

في مدريد متاحف ثمينة جداً يحج إليها عشاق الفن ، وسيقضي شوقي في متحف البرادو وقتاً طويلا مع أولاده [٤] ، ينعمون برؤية الصور الزيتية الرائعة التي يحويها « أحفل متاحف أوربا بلا نزاع [٥] »

---

١ — المصدر السابق : ص ٥٥

٢ — المصدر السابق : ص ٥٦

٣ — الحلل السندسية ١/٣٤٤ — ٣٤٦

٤ — أبي شوقي ص : ٥٦

٥ — الحلل السندسية ١/٣٥٠

وفيها يتجلى فن الرسامين الاسبان المشهورين من امثال فلاسكت وموريليو وجريكو ، وفي المتحف أيضاً رسوم لبعض المصورين الهولانديين النوابغ من أمثال روبنس وفان دايك .

وأروع ما يشاهده شوقي في مدريد قصر الاسكوريال ، ويقع على بعد خمسين كيلومتراً من العاصمة ، وهو قصر ملكي شيده الملك فيليب الثاني ، واستغرق بناؤه أعواماً طويلة ، وهو يشبه إلى حد بعيد قصر فرساى في ضواحي باريس ؛ وفي القصر سرداب يضم رفات ملوك اسبانيا الكاثوليك ، وهي ترقد في توابيت فخمة من المرمر الخالص ؛ وللقصر مكتبة عظيمة ، رأى شوقي في جناح منها بعض المخطوطات العربية فأثرت رؤيتها في نفسه[1]

من الصعب أن يجد السائح العربي في مدريد أثراً يربطه بأجداده بناة المدينة الأوَل ، غير بعض الاسماء العربية المحرفة التي لا تزال تطلق على الاحياء العتيقة في أطراف مدريد ، كشارع الكلا Calle de Alcala الذي يؤدي بنا إلى تلك القلعة المتخربة ...

وشيء آخر لم يُتح لشوقي أن يراه ، وهو تلك اللوحة الضخمة التي تزين السقف الكبير لقاعة الطعام في القصر الملكي . . صورة زيتية تمثل تسليم العرب مفاتيح غرناطة إلى الفاتحين الإسبان ! .

كانت زيارة شوقي لمدريد في فصل الربيع لأن جو العاصمة الاسبانية

١ — أبي شوقي ص ٥٦ — ٥٧

متعب ، شديد الحرارة في الصيف ، شديد البرودة في الشتاء ، وفي فصل الربيع تحلو زيارة مدريد ، لما فيها من متنزهات جميلة وحدائق عامة منسقة أجمل تنسيق ، وعلى الرغم من فتنة مدريد وقت زيارة شوقي لها ، فانه لم يمكث فيها طويلاً ، إذ كان متعجلاً في السفر إلى الاندلس[١] ».

— ٥ —

كان السفر سريعاً جداً حتى إن قطار الليل لم يسمح للمسافرين برؤية المدن التي يمرون بها ، وكذلك كان مرور القطار بطليطلة خاطفاً ، فليس في ذاكرة شوقي منها غير ذلك الجسر البالي[٢] القائم على نهر تاجُه Tajo المحيط بالمدينة كالسوار . .

ونسأل أحد أبناء شوقي عن مرورهم السريع بطليطلة ، فيُجيب بأن « ليس فيها آثار عربية تذكر..[٣] » ونذكر مايقوله الجغرافيون المعاصرون عنها ، فنأسف لعدم زيارة الشاعر العربي لها ، يقول جوسيه P. Jousset : « من زار اسبانيا ولم يزر طليطلة يرجع وكأنه لم يعرف اسبانيا.. فهي وحدها تستحق سياحة السائح اليها[٤] ».

---

١ — أبي شوقي : ٥٩

٢ — يقول شوقي في مقدمته النثرية للسينية : « طليطلة تطل على جسرها البالي» الشوقيات ٢/٥٢

٣ — من رسالة الأستاذ حسين شوقي الي

٤ — جغرافية اسبانيا والبرتغال المصورة لجوسيه : انظر الحلل السندسية ١/٤٢١

تمتاز طليطلة بموقع فريد ، فهي مبنية على جبل صخري عال شديد الانحدار ، يحيط به نهر تاجُه من كل جانب ، أما ذلك الجسر البالي ، فلا يزال يحمل إلى اليوم اسمه العربي (القنطرة) ، والمقّري شديد الإعجاب بهذه القنطرة يوم كان الواصفون يعجزون عن وصفها ، كما يقول في نفح الطيب[١] ، واليوم تبدو القنطرة — والمدينة كلها — عاجزة عن أن تغري الشاعر العربي بالتعريج عليها ، أو الوقوف بها[٢] .

وفي طليطلة اليوم من الآثار العربية باب قديم من أبواب المدينة ، يسمونه (باب الشمس) والى جانبه أثر عربي آخر ، لايزال يناضل الدمار ويستعصي على الفناء ، وهو مسجد صغير يحمل الى اليوم اسمه العربي El-Mezquita ، وعلى جوانب من أقواسه تلك الكلمات التي تمثل شعار أجدادنا : « لا غالب إلا الله » بلونها الأحمر القاتم، كما تركوها .

وطليطلة اليوم مدينة صغيرة قذرة ، وأهاليها ثلاثون ألفاً من الكسالى ، يدبون دبيباً في شوارعها الهامدة ، ويعيشون على كرم الزائرين ، ولو أن شوقي زار طليطلة ، وطاف بأحياء المدينة القديمة ، ووقف في ذلك الزقاق الضيق الذي لايكاد يتسع لمرور سيارة صغيرة، والذي يمثل الشارع الرئيسي في المدينة ، لمرت أمام عيني الشاعر العربي

---

١ — نفح الطيب ١/١٥٣

٢ — شكيب أرسلان ينكر أن يكون الجسر الحالي هو تلك القنطرة التي يتحدث عنها المقري الحلل السندسية ١/٤٢٣

مواكب التاريخ ، تحدوها ذكريات المجد العربي ..

كانت هذه المدينة الصغيرة في أيام الحكم العربي تتسع لربع مليون من المسلمين، وجميعهم يعيشون في نعمة ورخاء وأمن ، ويحدثنا المقّري أن طليطلة كانت من أعظم كور الاندلس « بها بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، مختلفة الطعوم والألوان، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، ورساتيق مريعة [١] ، وضياع بديعة، وقلاع منيعة ، وبالجملة فمحاسنها كثيرة .. [٢] » .

هذه صورة طليطلة تحت الحكم العربي، وهذا هو حاضرها الأعجف الفقير ، ولو أن مثل هذه المقارنة بين الصورتين تراءت لعيني الشاعر العربي ، لقال الشعر كلمته، ولفزنا من شوقي بأندلسية أخرى تضاف إلى إنتاجه الأندلسي، ولقصّ علينا فيها قصة الخسارة التي منيت بها مدنية الإنسان بخروج العرب من اسبانيا !

غير أن قطار الليل لم يكن يهتم بشيء من ذلك ، فأمامه رحلة طويلة تمتد أربعمائة وخمسين كيلومتراً ، مسافة ما بين مدريد وقرطبة ، وسيطوي القطار السهول الخضر والجبال الصلدة دون تريث ، وقبل أن يصل الى عاصمة الأمويين في الأندلس ، يُتاح للمسافرين أن يروا ، عند إقبال الصباح وبزوغ الشمس، جبال سييرامورينا Sierra Morena،

---

١ — أي قرى خصبة ممرعة

٢ — نفح الطيب ١/١٥٣

تغطيها أشجار الزيتون ، وتنتثر البيوت فوق تلالها وقممها ، وهي تلمع ببياضها الناصع تحت أشعة الشمس [1]

وبوصول شوقي الى قرطبة في ربيع عام ١٩١٩ يضع أقدامه أول مرة على أرض الاندلس [2]

— ٦ —

عندما وصل شوقي إلى قرطبة ، كان يحمل عنها في ذاكرته صورة زاهية رائعة ، جمع خطوطها من كتاب (نفح الطيب)، وكان قد حمله معه من مصر [3] ، وقرأه في برشلونة ، فأثارت أوصاف المقّري لمفاتن قرطبة شوق الشاعر إلى زيارتها ، ليرى ذلك البلد العظيم ، قاعدة بلاد الأندلس ، وسرير الأمويين في المغرب ،والعاصمة الآ هلة بقريب من مليون من السكان ، والعامرة بالمساجد والقصور والدور والفنادق والحمامات والحوانيت :

« كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجدٍ وثمانمائة الف

— انظر « اسبانيا كما رآها السيّاح المسلمون » L'gspagne vue par les voyageurs ص ١١٠ — ١١

٢ — أبي شوقي ٦٠

٣ — انظر ما تقدم ص ٢٥

وسبعةوسبعون مسجداً ... وتسعمائة حمام واحد عشر حماماً ومائة الف دارٍ وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصاً ، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها ..[١] »

« وقال بعضهم: هي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة أهلٍ ، وسعة محلٍ ، وفسحة أسواقٍ ،ونظافة محالٍّ ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق ،ويزعم قوم من أهلها أنها كأحد جانبي بغداد ، وإن لم تكن كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به ؛ وهي مدينة حصينة ذات سورٍ من حجارة ، ومحالٍّ حسنةٍ ..[٢] »

« وبها القنطرة التي هي إحدى غرائب الأرض في الصنعة والإحكام، والجامعُ الذي ليس في بلاد الاندلس والإسلام أكبر منه ..[٢] »

هذه بعض الخطوط من الصورة المجيدة التي يرسمها المقّري لقرطبة، ومثل هذه الصورة كفيل بأن يثير اهتمام الشاعر العربي ، ويهيج وحي شاعريته ، وكذلك أقبل شوقي على قرطبة ، وكله أمل بأن يجد في آثارها العربية مادة للشعر لا تنضب !

ولكن يالخيبة الأمل !

ولا بأس من أن نستعين هنا بأحد أولاد الشاعر ليصور لنا خيبة

---

١ — نفح الطيب : ٧٩/٢

٢ — المصدر السابق : ٨/٢

الأمل هذه عندما أقبل شوقي وأهله على قرطبة :

« يالخيبة الأمل ! إنها قرية كبيرة ليس غير ، فعدد سكانها لم يعد يتجاوز الخمسين ألفاً ، كما أن طرقاتها ضيقة قذرة . رب ! أهذه قرطبة التي كانت عروس الأندلس في العهد العربي الزاخر ؟ أهذه حاضرة الإسلام التي كانت تضم مئات المساجد والمدارس ، وقد بلغ عدد سكانها إذ ذاك المليون ؟ أهذه كعبة العلماء والفقهاء التي يُحج إليها من جميع أنحاء العالم ؟ واأسفاه ! كل هذا قد ضاع واندثر كأن الأرض قد انشقت وابتلعته ! [1] »

أجل لقد اندثر كل شيء في قرطبة ، ولم يبق اليوم في (كوردوبا) الإسبانية من آثار العرب غير ذلك المسجد المحزون الذي « لا نظير له العالم الإسلامي [2] » ، ولولاه ما تجشم سائح عناء السفر إلى قرطبة !

ويقف شوقي أمام المسجد العتيد النائم في قلب المدينة ، وتصطرع أمام عينيه صورتان : قرطبة الأمس وكوردوبا اليوم ، وتتغلب الصورة الزاهية الزاخرة بالحياة والألوان ، وتغطي الصورة الفقيرة الحاضرة ، فلا يرى الشاعر أمامه غير الماضي الزاهر : فالقصور تتجلى لعينيه ، وقد ماجت بقاطنيها ، وحنَت على من فيها من كرام الملوك والأمراء ، والمسجد العظيم يعود إليه بهاؤه وعمرانه ، فالطلبة يحجون إليه ، من

---

١ — أبي شوقي : ص ٦٠

٢ — السفر إلى المؤتمر لأحمد زكي ص ٣٩٠

الشرق والغرب ، ليدرسوا فيه ، حتى إذا كان يوم الجمعة بدا المسجد الجامع في جلاله ، وأقبل الخليفة عبدالرحمن الناصر يشهد الجمعة فيه ، والملك العربي في أوج عزه ومجده ، تخضع لهيبته ملوك الافرنج ، وتستسلم صاغرة إلى حكمه في تيجانها ، فيضع من يشاء ويرفع من يشاء [1]

لم يَرُعني سوى ثرى قرطبيٍ   لمست فيه عبرةَ الدهر خمسي
قرية لا تُعدّ في الأرض كانت   تُمسك الأرض أن تميد وتُرسي
ركب الدهر خاطري في ثراها   فأتى ذلك الحمى بعد حدسِ
فتجلّت ليَ القصور ومن فيـ   ـها من العزّ في منازلَ قُعس
ما ضَفَت قط في الملوك على نذ   لِ المعالي ولا تردّت بنَجْس
وكأني بلغتُ للعلم بيتاً   فيه مال العقول من كل دَرْسِ
قُدُساً في البلاد شرقاً وغرباً   حجّه القومُ من فقيهٍ وقَسِّ
وعلى الجمعة الجلالةُ والنا   صر نور الخميس تحت الدرفسِ
يُنزل التاج عن مفارق (دونٍ)   ويحلّي به جبين (البرنس)

وينزاح الماضي من أمام عيني شوقي ، وتبدو الصورة الهزيلة للحاضر الفقير ! فيدرك الشاعر أن ما رآه من قبل لم يكن غير سنة من كرى وطيف أمان [2]

سِنةٌ من كرى وطيفُ أمانٍ   وصحا القلبُ من ضلالٍ وهجس

---

١ — الشوقيات : ٢/٥٧ – ٥٨
٢ — الشوقيات : ٢/٥٨

وإذا الدارُ مابها من أنيسٍ وإذا القومُ مالهم مِنْ مُحسِ

ويدخل شوقي المسجد فإذا هو تائه في غابة من أشجار المرمر ، وتلك هي سواري المسجد ،وقد بدت في استوائها مثل ألفات الوزير ابن مقلة[1] المعروف بجودة خطه[2] :

مرمرٌ تسبحُ النواظرُ فيه ويطول المدى عليها فتُرسي

وسوارٍ كأنها في استواءٍ ألفاتُ الوزير في عَرْضِ طِرْسِ

ويطوف شوقي بأرجاء المسجد ،حتى يصل إلى المحراب ، ويرى ما عليه من بديع النقوش والخطوط ، فيذكر بالثناء والتقدير بانيَ المسجد ، عبد الرحمن الداخل[3] :

صنعة (الداخل) المبارك في الغرب وآلٍ له ميامينَ شُمسِ

ويستثير عبد الرحمن الداخل إعجاب الشاعر ، فصقر قريش بطل عربي غامر بنفسه ليقيم لأسرته ملكاً جديداً في الغرب ، ويخفق قلب شوقي وهو يذكر أنه الآن في الرحاب التي أسس فيها الداخل

---

١ — هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور : استوزره المقتدر بالله والقاهر بالله والراضي بالله ، وساءت حاله في آخر أيامه وتوفي عام ٣٢٨ هـ (راجع ابن خلكان ٤/١٩٨ - ٢٠٢)

٢ — الشوقيات : ٢/٥٨ - ٥٩

٣ — الشوقيات : ٢/٥٩ ، وعن بناء المسجد الجامع في قرطبة راجع ماكتبه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في كتابه L'Esqagne musulmane au Xème siècle par E. Levi-Provençal ص٢١٠-٢٢١

دولة الأمويين ، والتي تضم أرضها عظامه ، فينطلق لسانه بالشعر ، يتغنى بأمجاد ذلك الصقر ، ويختار شوقي هذه المرة لغنائه لحناً أندلسياً صرفاً ، فيعزف لنا على قيثارته موشحة يرسم في مقاطعها صورة البطل الأموي ، منذ قدومه من المشرق إلى نجاحه في تأسيس الدولة الأموية في المغرب[١]

كنت صقراً قرشياً علما ما على الصقر إذا لم يُرمس

إن تسل أين قبورُ العظما فعلى الأفواه أو في الأنفس

— ٧ —

ويغادر شوقي قرطبة إلى اشبيلية ..

كانت اشبيلية أكبر مدن الأندلس في وقت زيارة شوقي لها ،وهي مدينة جميلة عليها طابع شرقي بارز للعين ، ففي منازلها أحواض للمياه تتوسط أفنية الدور ، لترطيب الجو ، وهي تماثل تلك البحيرات الصغيرة التي نجدها في دور دمشق العربية ،والاسبانيون شديدو الفخر باشبيلية ، والمثل السائر بينهم: « من لم يشهد اشبيلية لم يشهد العجب[٢] ! »

والعجب الذي يشهده السائح في اشبيلية هو في هذين الأثرين

---

١ — الشوقيات : ٢/٢٢٢

٢ — أبي شوقي : ص ٦٣

العربيين العجيبين الباقيين الصامدين في وجه الفناء ، وأولها القصر El-Alcàzar وثانيهما الجيرالدا Giralda (ومعناها بالاسبانية البرج الدوّار) إذ ليس في اشبيلية ما يثير العجب والدهشة غيرهما !

في وسع شوقي إذاً أن يطوف بالبلد قليلاً ليرى المدينة التي شُهرت بالجمال والعشق والرقص ، والتي ضرب المثل بأهلها — منذ القدم — في الخلاعة[1]

وفي وسع شوقي أيضاً أن يصحب في الأصيل أسرته إلى متنزه اشبيلية الجميل على ضفاف نهرها الشهير « الوادي الكبير » ، كما يفعل الاشبيليون ، للتمتع بالنسيم العليل الذي ينبعث من النهر ..

في وسع شوقي أن يقوم بهذا كله في يوم واحد . وأما أيامه الأخرى التي يقضيها في اشبيلية ، فلن يبتعد فيها عن الجيرالدا والقصر ..

والجيرالدا هي منارة المسجد الجامع في اشبيلية ، وقد هدم الاسبان المسجد ، وأقاموا مكانه كاتدرائية ضخمة ، ولكنهم تركوا المنارة العظيمة قائمة بجانب الكاتدرائية ، وهي اليوم شاهد حاضر يتيح للسيّاح أن يتخيلوا ما يجب أن يكون عليه المسجد المهدوم من روعة الفن وجمال الصنعة .. وقد كانت المنارة أعجوبة لا نظير لها في الفن الاسلامي ، فالمقّري يقول إنه « ليس في بلاد الاسلام أعظم بناءً منها[2] » ترتفع

---

١ — نفح الطيب : ١/١٥١

٢ — المصدر السابق : /١٩٣

أكثر من تسعين متراً ، وليس لها درج ، وإنما يُصعد إلى رأسها سيراً في طريق منحدرة ملتفة ، وفي استطاعة الفارس أن يصعد بفرسه إلى قمتها !

هذه المنارة العربية الشامخة الرأس لا تزال إلى اليوم مصدر وحي وإلهام لكثير من أدباء الإسبان وشعرائهم ، ومن أعلى المنارة تبدو اشبيلية لعين الناظر المشرف بلدةً كبيرة نظيفة بمبانيها البيض ،وسقوفها القرميدية الحمر ، وأروع ما يسحر العين منظر ذلك القصر العربي ، ومن ورائه يمتـد مثلث أخضر ، هو حدائق القصر الكبرى ، ومن خلفها نهر الوادي الكبير ، يحف بها كالهلال .

في هذا القصر العربي قضى شوقي فترات طويلة ، يطوف في أبهائه ويتنقل في حجراته ، ويرى القسم الذي أضافه الاسبان إلى القصر فشوهوا بذلك جماله الخالص ، فبدا خليطاً من الطرازين الشرقي والقوطي[1]

كان شوقي يبحث عن الملك الشاعر المعتمد بن عبّاد وزوجه الشاعرة الجميلة الرميكية وابنتها بثينة وجدتها العبّادية ، ولكنه لن

---

١ — يقول حسين شوقي « ولكن هذا الخلط لا يؤذي الذوق ،بل هو على العكس رائع .. » أما نحن فقد رأينا فيه تنافراً وقبحاً ملحوظين حتى إن دليلنا الاسباني في زيارتنا للقصر ، لم يُخف سخره من ذلك التشويه لجمال القصر العربي المنسجم (وانظر أبي شوقي : ٦٣)

يجد أحداً منهم في القصر ، فقد داهم « يوسفُ بن تاشفين » الملك العبّادي ، ونفى الأسرة المالكة كلها عن اشبيلية إلى أغمات !

غير أن بحث شوقي عن أبطال روايته (أميرة الأندلس) لن يضيع سدى ، فأطياف هؤلاء تعبق بها أجواء القصر الخالي ، وتموج بها ظلال الحدائق العربية الغُلْب ، وراءَ القصر الحزين ، وخيال شوقي قادر على أن يلتقي بهذه الأطياف ، ليتبين ملامحها من قرب ، ويتمثل من خلالها قصة الأيام الأخيرة لحكم بني عبّاد في اشبيلية ،قبل غزو المرابطين لها

— ٨ —

يبدو أن غرناطة كانت آخر مدينة في الأندلس تركت في إنتاج شوقي الأندلسي صورة لآثارها ..

كانت غرناطة آخر معقل للعرب في اسبانيا ، خرج منهم بتسليم أبى عبد الله الصغير ، آخر ملوك بني الأحمر ، إلى فرديناند وايزابيلا مفاتيحها خرجوا وخلّفوا في هذه المدينة أضخم أثر عربي تزهو اليوم به الأندلس ، وتهفوا اليه قلوب السيّاح من كل مكان في الأرض ليروا إحدى معجزات الإنسانية ، ومفخرة الحضارة العربية والفن الاسلامي في إسبانيا

إنه قصر الحمراء ، حصن غرناطة ودار بني الأحمر ،ولا يزال إلى

اليوم ، كما تركه ُبناته الأمجاد ، أعجوبة تسحر الألباب ، ويُفتن به الزائرون .

يقع قصر الحمراء — والاسبانيون يلفظون اسمه العربي محرّفاً بعض التحريف : Alhambra — فوق آكام عالية ُتطل على غرناطة ، تحيط به جنّات وارفة الظلال من حدائق القصر ، ويُشرف على هذه الآكام جبل سيرا نفادا Sierra Nevada ، والثلوج تتألق عليه تألق الفضة ، ولا تفارق قممه في الصيف ولا في الشتاء ، فهو شيب سرمدي ، كما بدا لعيني شوقي[1]

جلّل الثلج ُدونها رأسَ (شيرى) فبدا منه في عصائب بِرسِ[2]
سرمدٌ شيبهُ ، ولم أر شيباً قبله ُيرجىء البقاء ويُنسي

وقبل أن يصل شوقي إلى الحمراء لا بد له من صعود ذلك الطريق المنحدر المظلل بأغصان الشجر الكثيف ، وإذا كانت السنون الخمسون يؤذيها مثل هذا الصعود مشياً ، فعلى الشاعر أن يتمهّل في السير ، وأن يقف قليلاً عند الباب الكبير المسمى بباب العدل ، ليرى على قوسه تلك اليد الهائلة المنقوشة بأصابعها الخمس .. إنها — فيما يقال — رمز للعقيدة الاسلامية بأركانها الخمسة !

---

١ — الشوقيات : ٥٩/٢
٢ — عصائب بيض كالقطن

وإذا شاء شوقي أن يسلم نفسه لأحد الأدلة الاسبان المتسكعين حول الباب ، وسأله عن تلك اليد المنقوشة ، فله أن يسمع فيضاً من الأساطير ، كما يقصها الكاتب الاميركي واشنطون ايرفنج W.Irving في كتابه الجميل « قصص الحمراء » نقلاً عن سكان غرناطة ، وعندهم أن الملك العربي الذي بنى الحمراء كان ساحراً عظيماً ، وأنه قد جعل القلعة كلها قيد تعويذة سحرية ، ترمز لها هذه اليد المبسوطة ، وبهذه الوسيلة بقيت الحمراء قائمة مئات عدة من السنين ،منيعة على العواصف والزلازل ، بينما انهارت أكثر الأبنية العربية الأخرى واختفت معالمها[1] !

ويجتاز شوقي باب العدل ، ليسير في طريق ضيق متعرج بين التلال حتى يبلغ ساحة الآبار ، حيث صهاريج المياه محفورة في الصخر الصلد ، لتزويد القلعة بالماء ، وفي آخر الساحة يجد شوقي قصر شارل الخامس ، بدأه ولم يتمه ، فظلت القصر جدراناً قائمة ، يتخطاها الزائر ليجد نفسه داخل قصر الحمراء .

ولا نحسب شوقي الآن بحاجة إلى الدليل ، فالشاعر العربي الآن يطوف في حجرات قصر بناه أجداده، ووضعوا فيه شيئاً من روحهم، وملأوا جدرانه بالآيات والأشعار العربية ، ومن البداهة ألاّ يحتاج الانسان في بيته إلى دليل !

---

١ ـ انظر (قصص الحمراء) ص ٢٩

طاف شوقي في غرف الحمراء وحجراته الرحبة الواسعة ، وكلها آية في الروعة والجمال ، زاهية بالنقوش الدقيقة والفسيفساء الملوّن ، وقد مرّ شوقي بقاعة البركة وبرج قمارش وقاعة الأختين وقاعة بنى سراج ، ووقف طويلاً في قاعة السفراء وهي اجمل غرف الحمراء ، « وفيها كان ملوك بني الأحمر يقابلون رسل ملوك الافرنج وسفراءهم[1] » وتحوي جدرانها أبدع النقوش والخطوط ،وهي تطل على حيّ البيازين Albaicin من غرناطة من جهاتها الثلاث ، والجهة الرابعة تُفضي إلى قاعة البركة ومنها إلى ساحةالريحان .

ويصل شوقي إلى ساحة السباع ، ويقف أمام ذلك الحوض المرمري ، تحيط به سبعة من الأسود المرمرية ، وتُوليه ظهورها ، والماء يتدفق من أفواهها عذباً صافياً ، فتلتقط شاعرية شوقي هذه الصورة[2] :

مرمرٌ قامت الأسود عليه كَلّةَ الظّفر لينات المجسِ
تنثر الماءَ في الحياضِ جُماناً يتنزّى على ترائب مُلْسِ

ثم يتلفت الشاعر حوله ، يبحث عن ملكات بني الاحمر ، فأين هي الثريا[3] واين هن جواريها ؟ إن مجلس السباع كئيب مقفر خال[2]

– أبي شوقي ٦٥
٢ – الشوقيات : ٢/٦٠
٣ – هي زوج أبي الحسن علي أحد ملوك بني الأحمر قبل أبي‌عبدالله‌الصغير

وترى مجلس السباع خلاءً مقفرَ القاعِ من ظباءٍ وخُنس
لا الثريا ولا جواري الثريا يتنزّلن فيه أقمارَ إنْسِ

وهكذا بدت غرف الحمراء لعيني شوقي ، حزينةً ، أخنت عليها الحادثات ، وأثقلها الألم[1]

مشت الحادثات في غرف الحمـ راء مشىَ النعيِ في دار عُرس

ويخرج شوقي من الحمراء ، وفي نفسه حرقة وألم ، فكيف أضاع العرب مثل هذا الملك الزاهر ، وكيف تخلوا عنه وتركوه ، وخرجوا أذلةً صاغرين ! لقد بنى لهم الأجداد فهدم الأحفاد ، وباع الوارث الغافل تراثه المجيد بثمن بخس !

وعندما يصل شوقي إلى فندق (واشنطون ايرفنج) حيث يقيم مع أسرته ، في قلب الغابة المحيطة بالحمراء ، يقف طويلاً أمام الصورة الكبيرة الزيتية المعلقة في بهو الفندق ، والتي تمثل الملك العربي أبا عبد الله آخر ملوك غرناطة ، وهو يسلّم في خضوع مفاتيح المدينة الى الملوك الكاثوليك[2] وتثور في نفس شوقي العربي المسلم حسرات وآلام ، وهو يرى النهاية المخزية المحزنة لقصة المجد العربي في الاندلس ، فيحمل حملة عنيفة على ذلة أبي عبد الله الصغير واستسلامه[3]

---

١ — الشوقيات : ٥٩/٢

٢ — أبي شوقي : ٦٦ — ٦٧

٣ الشوقيات : ٦٠/٢ — ٦١

ومفاتيحها مقاليدُ مُلكٍ باعها الوارثُ المضيعُ ببخسِ
رب بانٍ لهادمٍ وجموعٍ لِمشتتٍ ومُحسنٍ لمُخسِ
إمرةُ الناسِ همة لاتأتّى لجبانٍ ولاتسنّى لِجبسِ

وتمتد إقامة شوقي وأهله في جوار الحمراء، في ذلك الفندق السياحي الجميل الذي يحمل اسم الكاتب الأميركي الشهير الذي أحب الحمراء وكتب عنها قصصاً رائعة[1] ضمنها الكثير من الاساطير التي يتناقلها أهل غرناطة عن القصر العربي، والاشباح الساكنة فيه، والطلاسم التي تحميه، والكنوز المدفونة فيه، وكان شوقي وأولاده يأنسون بسماع هذه الاساطير، وقد بقي في ذاكرة حسين شوقي منها جانب يقصه علينا في كتابه عن أبيه[2]. وكان شوقي في غرناطة يأنس أيضاً بالتعرف على بعض الأُسر الاسبانية، ومنها أسرة ذلك الضابط الشديد السمرة الذي أحب شوقي فيه ظرفه ورقته، وقال له الشاعر يوماً إن لونه الأسمر لون عربي، فأجاب الضابط فخوراً بأنه في الواقع من أصل عربي، «وأنه ـ على حسب شجرة أسرته ـ يجري الدم العربي

---

١ — ترجم كتاب ايرفنج إلى معظم اللغات الحية، ونقل إلى العربية في مصر قريباً، ويكاد كل سائح يفد اليوم على الحمراء يحمل في يده نسخة من (قصص الحمراء) لايرفنج بلغته القومية

٢ — أبي شوقي: ٦٨ — ٨٨

في عروقه، غير أنه ليس دماً عربياً عادياً ، بل هو دم الأمويين الأمجاد ![1] »

ماأشد مايؤلم الشاعر العربي ، حين يرى في سُمرة هذا الضابط الاسباني قصة كفاح أجداده العرب في الاندلس ، هؤلاء العباقرة الذين عمروا تلك التربة وأهدوا لها خير مايقدمه العقل النيّر واليد الصناع ، هؤلاء العاملون المحسنون قد استؤصلوا استئصالا وحشياً وأبيدوا إبادة همجية ، فكان جزاؤهم على إحسانهم كفراناً يندى له جبين الانسانية خجلاً ، ولولا هذه الآثار القليلة التي بقيت إلى اليوم مستعصية على التدمير والتخريب والتحريق ، لَما عرفت أوربا عنهم غير أنهم غزاة مغتصبون متسلطون ، لاحضارة لهم ولا مدنية ، دخلوا الاندلس على حين غفلة من أهلها ،فعاثوا في الدار فساداً ، ثم خرجوا أذلة مطار دين مدحورين ! ولكن هذه الآثار القليلة الباقية منهم إلى اليوم هي صدى المجد الذي بناه العرب في قلب الدولة المسيحية ، وسيظل هذا الصدى يرن في مسامع الأجيال ، لحن خلود وتقدير للعرب في إسبانيا ، وصرخةَ ألم وحسرة في قلوب أحفادهم ، ومن هنا كان شوقي يمسك لسانه كلما همّ بشكر اسبانيا على حسن ضيافتها له، خلال سنوات نفيه ، فأطياف محاكم التفتيش وماقاساه العرب منها لم تدع لاسبانيا من شكر الشاعر لها غير أبيات قليلة !

---

١ ـ أبي شوقي : ٦٦

— ٩ —

وقبل أن يتصرم عام ١٩١٩ يصل إلى شوقي نبأ السماح له بالعودة إلى الوطن [١] ، بعد أن أذن له (الخديوي [٢]) فؤاد بذلك [٣] ، فيفرح بعد يأسه ، وينهي تجواله في ربوع الاندلس ، ويتعجل في مغادرة اسبانيا إلى مصر ، ولا ينتظر شوقي إبحار أولى السفن الاسبانية إلى السويس ؛ فموعد مغادرتها اسبانيا بعيد ، والشاعر المنفيّ يتحرّق شوقاً إلى العودة ، ولهذا يبحر مع أهله إلى جنوا ومن ثم يركبون القطار إلى البندقية ليلحقوا بأول سفينة تغادر ميناءها إلى مصر ..

وهكذا يعود شوقي إلى وطنه شيخاً في الحادي والخمسين من عمره ، وقد زادته آلام المنفى وهمومه إحساساً بشيخوخته ، ولكنه مايكاد يحط أقدامه في بلده ، حتى يحس بقوة الشباب تتدفق من جديد في عروقه [٤]

وياوطني لقيتك بعد يأسٍ كأني قد لقيتُ بك الشبابا

وعندما وصل شوقي إلى الاسكندرية استقبله لفيف من أقاربه

---

١ — أبي شوقي ٨٩

٢ — اعتلى الخديوي فؤادعرش مصرسنة ١٩١٧وأصبح ملكاًعليها سنة١٩٢٢

٣ — شاعرا العروبة شوقي وحافظ لعبد السميع المصري : ص ١١

٤ — الشوقيات : ٥٦/١

وخُلّص أصدقائه، أما القاهرة فقد كان استقبالها للشاعر العائد رائعاً حقاً، فقد تجمع في فناء محطتها آلاف الطلبة لتحيته، وغص ميدان المحطة بجموع الشباب، وما أن نزل شوقي من القطار حتى دوّى الهتاف بحياته في حماسة طاغية، وحمله الطلاب على أعناقهم في عاصفة من التهليل والتصفيق حتى السيارة[1]

كان هؤلاء الطلاب الشباب جنود الميدان في تلك الساعة، تفتحت في نفوسهم تلك البذور التي غرسها مصطفى كامل، ورعاها من بعده فيهم زعيم مصر سعد زغلول .. إنه الجيل الجديد الذي سيخط بيده تاريخ مصر الحديث في عيونه نظرات العزم، وفي دمائه غليان الرجولة، وفي أعصابه ثورة الكرامة ..

إنه الشعب الذي استيقظت طليعته، ففتحت أعينها ورأت ما تعانيه مصر المرزّأة الصابرة من ظلم سياسي واجتماعي، فحزّ في قلوبها حال وطنها، وآلمها صبره على المحنة والأذى، وعلى العبودية والاستعمار، فتسلل الوعي الوطني ـ عن طريق الألم ـ إلى نفوسها، وعمرها ثورةً على الخنوع القديم والاستكانة الماضية، وثقةً بمستقبل مصر وتحريرها..

وكأن هذه الطليعة الواعية أدركت دور الشاعر العائد في حركة نضالها من أجل تحرير مصر، فخرجت جموعها تستقبله وتحييه، وتدعوه إلى الوقوف بجانبها، وتعلن له ـ بلسان حالها ـ حاجة مصر، في بعثها

---

١ — أبي شوقي : ٩٠

الجديد ونهضتها المأمولة، إلى شاعر يؤمن بالوطن ، فيؤثره ويفديّه ، ويؤمن بالشعب فيخلص له ويناضل دونه ، ويحسن توجيهه .

ولقد كان تأثر شوقي كبيراً حقاً من حفاوة شباب مصر به ،وجميل لقائهم إياه، بعد غربته الطويلة عن وطنه ، ومن خلال الدموع الغزيرة التي ترقرقت من عينيه، وهو يرى جموعهم المتراصة، أيقن شباب النيل أن الشاعر العائد لن يتخلى عن الرسالة الجديدة التي يُدعى إلى حملها والنضال في سبيلها .

وكذلك كانت عودة شوقي من منفاه فاتحة عهد جديد في شخصيته وفنه ، ومنعطفاً ذا خطر كبير في حياته الأدبية، وسنفصّل الكلام على ذلك في الفصل الثالث .

— ١٠ —

عاش شوقي بعد عودته من المنفى اثنتى عشرة سنة ، وهي سنوات قليلة العدد ، ولكنها غنية خصبة بالانتاج، حافلة بما قدّم الشاعر خلالها إلى مصر وشعبها والأمة العربية والفن من رائع الشعر وخالده ، وحقق في كل ذلك تطوراً كبيراً في شخصيته وفنه .

أسهم شوقي في الحياة السياسية الوطنية خير إسهام ، ودخل مجلس الشيوخ سنة ١٩٢٤ بترشيح من صديقه الزعيم سعد زغلول [١] .وكانت

---

١ — أبي شوقي : ١٢٦

أغانيه في كل مناسبة وطنية تهز وجدان الشعب وضميره ، وترسم له طريق النضال والحرية والكرامة

وكان شوقي يقضي أكثر الصيف من كل عام في فرنسا ، حيث كان ولداه علي وحسين يدرسان الحقوق ، وكان يعرّج في ذهابه إلى أوربا وإيابه منها على لبنان وسورية ، حيث يلتف حوله الشباب العرب القوميون ويسألونه أن يكون حظ البلاد العربية من أغانيه كبيراً ، فلا يقصر نفسه في فرائده على مصر وحدها ، ليكون شاعر العرب الأكبر ، ومن ثم أصبح صوت شوقي ينطلق في كل مناسبة قومية ، وأصبح شعره هو الغناء في فرح الشرق العربي ، وهو العزاء في أحزانه [1]

كان شعري الغناءَ في فرح الشر　　ق وكان العزاء في أحزانه

وهذا البيت من قصيدته التي أُلقيت في مهرجان تكريمه سنة ١٩٢٧ ، وقد اشتركت فيه وفود من مختلف الأقطار العربية والاسلامية ، وبايعت شوقي فيه بإمارة الشعر ، على لسان حافظ [2]

أميرَ القوافي قد أتيت مبايعاً　　وهذي وفودُ الشرق قد بايعت معي

ويمثل هذا المهرجان التاريخي القومي الشامل ذروة ما بلغه شوقي من التكريم ، وقد ألقى المهرجان على كاهل الشاعر العربي الكبير ، حين

---

١ — الشوقيات ٢/٢٤٣

٢ — ديوان حافظ ابراهيم : ١/١٢٨

بايعه بإمارة الشعر العربي ، عبء واجبين ضخمين : أولهما نحو الأمة العربية التي أجمعت على تقديمه وأرادت أن يكون اللسان الناطق المعبر عن آلامها وآمالها ، وثانيهما نحو فنه ، فلا بد له من التجديد فيه ، وإضافة لون جديد إلى التراث المدرسي (الكلاسيكي) في الشعر العربي..

والحق أن لهذا المهرجان تأثيره في إنتاج شوقي في السنوات الأخيرة من حياته ، فازداد اللون العربي في شعره ظهوراً ، وقدّم إلى الأدب العربي مسرحياته الشعرية .

وفي أواخر عام ١٩٣٢ ، وحوالي الساعة الثانية من صباح الرابع عشر من تشرين الاول ، يغيب شوقي عن الدنيا ، وقد خلّف فيها ذكراً خالداً لا يموت .

★ ★

الفصل الثاني

أدب شوقي في المنفى

— ١ —

لماذا اختار شوقي برشلونة مقراً لمنفاه ؟

كانت السلطة العسكرية في مصر تروم اعتقاله مع من اعتقلتهم أثناء الحرب من أنصار الخديوي المعزول عباس ، حذراً مما قد يثيره هؤلاء لها من متاعب وشغب في البلاد ، ولكن بعض أصحاب الشاعر ، من المتصلين بالسلطات البريطانية ، شفع له لديها [1] ، فرجعت عن عزمها على اعتقاله ، واكتفت بنفيه من مصر ، مادامت الحرب الكونية قائمة ، ونصحت له بمغادرة مصر — كما يقول هنري بيريس — إلى أي بلد محايد [2] ، فشرط الحياد إذاً إجباري ، تفرضه السلطة البريطانية.

---

١ — أمير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ لمحمد خورشيد ص ٣٠

٢ — راجع « اسبانيا كما رآها السيّاح المسلمون L'Espagne vue par les voyageurs... ص ١٠١

وتؤكد بعض المصادر أن السلطات البريطانية تركت لشوقي أن يختار « الجهة التي يريد الإقامة فيها خارج مصر فاختار اسبانيا[١] » ، ويذكر مصدر آخر أن الشاعر أراد أن يختار الآستانة أو فرنسا ولكن الحرب القائمة في كلا البلدين صرفته عنهما[٢] ؛ وعلى هذا يكون الحياد اختيارياً تُمليه رغبة الشاعر نفسه في الابتعاد عن المنطقة الحربية !

وسواء أكان الحياد إجبارياً ، وهو المعقول وما تفرضه الظروف ، أم لم يكن ، فإن اختيار شوقي لبرشلونة ضرورة دفعته الظروف الخارجية إليها ، فهي الميناء المحايد الوحيد الذي يتيح له العودة ، بأقصى سرعة ممكنة ، إلى وطنه ، عندما تنتهي الحرب ، وعلى هذا يجب أن نزيح كل تفكير يوهمنا بأن شوقي اختار الأندلس بدافع داخلي ، ليطوف بآثار العرب المجيدة ، ويقف على حضارة الاسلام في تلك الفترة التي أجبر فيها على مغادرة مصر !

وقد يُقال إنه كان في وسعه أن يختار بلداً محايداً آخر ، كأميركا مثلاً ، فقد ظلت على حيادها طوال الشطر الأول من الحرب ، وليس ما يمنع الشاعر من السفر إليها ! وفيما قدمنا رد على هذا الاعتراض ، ذلك أن شوقي كان يظن أن أمد الحرب لن يطول ، وانه عائد إلى

---

١ ـ أمير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ لمحمد خورشيد ص ٣٠

٢ ـ (شوقي وحافظ) لطه حسين : ص ٢١٧ .

مصر بعد أشهر قليلة من نفيه منها[١]، وبرشلونة هي التي تكفل له ولأسرته الكبيرة العودة السريعة إلى وطنه ..

ثم ماذا ؟

ثم إنّ شوقي اختار برشلونة ولم يختر الأندلس ، فهو منذ أن حطّ رحاله في برشلونة لم يغادرها طوال مدة الحرب ، وكان عازماً عند إعلان الهدنة على السفر السريع إلي مصر ليلقى أمّه المريضة ، لولا أن السلطة المصرية أبت عليه العودة ، وعند ذلك ، وعند ذلك فقط ،يفكر شوقي في الرحلة إلى الأندلس ، ولو لم ترفض السلطة المصرية السماح له بالعودة إلى وطنه في أواخر عام ١٩١٨ لما زار شوقي جنوبيّ اسبانيا البتة ، ولقفل عائداً إلى مصر دون أن يرى الأندلس، فتبلغ « النفس بمرآه الأرب ،وتكتحل العين في ثراه بآثار العرب[٢] ».

أمّا إذا كنا نرغب في التماس عذر لشوقي ففي وسعنا أن نثير القضية المالية ، فقد كان ما يصل إلى شوقي من المال محدداً ـــ كما قدمنا[٣] ـــ ، والتجوال في اسبانيا يتطلب من الشاعر بسطاً في الإنفاق لا تتسع له الدراهم التي تُرسل إليه ؛ وفي وسعنا أيضاً أن نعتلّ له بأنه كان مجبراً على البقاء في برشلونة ، لا يغادرها ... ولكنّ هذه الأعذار كلّها

---

١ — انظر ماتقدم ص : ١٩

٢ — المقدمة النثرية للسينية : الشوقيات : ٥٢/٢

٣ — انظر ماتقدم ص ٢١ وانظر أبي شوقي : ٥٥

تنهار إذا ذكرنا عزم شوقي على العودة السريعة إلى مصر إثر انتهاء الحرب تماماً[1]

وبعدُ ، فلماذا نقلّب هذه الآراء هنا ، ونحن نريد دراسة أدب شوقي في المنفى ؟

لا بد لنا قبل دراسة أندلسيات شوقي من أن نحدّد اهتمام الشاعر بـ « الفكرة الأندلسية » لندرس على أضوائها أدبه في المنفى

— ٢ —

وتحديد « الفكرة الأندلسية » عند شوقي ، قبل وصوله إلى برشلونة، يضطرنا إلى أن نلقي نظرة تاريخية على شعره قبل المنفى، نتتبع ما فيه من رصيد أندلسي ونلاحظ تطوّره خلال السنين ..

يبدو أن أول طيف للأندلس في شعر شوقي يُطل علينا من وراء قافية بيت له ، من قصيدة ألقاها عام ١٨٩٤ في مؤتمر المستشرقين الدولي المنعقد في جنيف ، عرض فيها لَرسالة الاسلام التي نبتت في البيداء ، وأطلعت من الصحارى ، من قلب الخيام ، أسوداً فتحوا الدنيا ،

---

١ — يقول شوقي في حديثه لمؤتمنه أحمد عبد الوهاب أبي العز عن وقع نعي أمه في نفسه « وكنت دائماً أرقب أخبار الحرب .. وما كاد يقع نظري على أخبار الهدنة حتى ذكرت والدتي فرحاً بقرب لقائها ، ولكن لسوء حظي ... الخ » انظر : اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ص ٣٠ — ٣٢ وانظر ماتقدم : ص ٢٧ — ٢٨

وقادوها نحو النور ، ونشروا فيها الحضارة ،وحكموا بعدلهم الأرض، وعلى ذلك[1]

تشهد الصينُ والبحارُ وبغدا د ومصر والغرب و (الحمراءُ)

فهذه (الحمراء) رمز للحكم العربي والحضارة الاسلامية في الأندلس ، وهي صورة غامضة جداً تمثّل في ذلك الوقت رصيد شوقي من « الفكرة الأندلسية » في شعره .

وتعود هذه الصورة الغامضة أيضاً ، فنراها في بيت من قصيدة شوقي التي رفعها إلى السلطان عبد الحميد، عندما نزل في ضيافته في الآستانة[2]

ويبيتُ الزمان (أندلسياً) ثم يُضحي ونأسه أعجامُ

وكأنَّ ناشر ديوان شوقي أحسّ بغموض الصورة أيضاً فحاول عبثاً إيضاحها حين فسّر (الزمان الأندلسي) في الهامش بأنه « زمان الاندلس أيام عز العرب والإسلام فيها[2] » .

وتظل الصورة غائمة ، لا يزايلها غموضها ، حين تعود مرة ثالثة ، في القصيدة التي يمجد فيها السلطان محمد رشاد الخامس ، ويخاطب في آخرها الآستانة ويناجيها نجوى محب هائم بها ، ينتمي إليها بصلة الدم والقربى ، من طريق أمه وأبيه ، فهي إذاً مهد أصوله ، وقد حركت

---

١ ـ الشوقيات : ١/١٦

٢ ـ المصدر السابق : ١/٢٩٩

وحي شاعريته وأطلعته قبساً يُضيء الشرق ، قبساً فريداً [١] :

لم تُكثر (الحمراءُ) من نظرائه نسلاً ولا بغداد من أمثاله

و (الحمراء) هنا ، بحشرها في زمرة واحدة مع بغدادوالآستانة، يجب أن تعكس مفهومالعاصمة الاسلامية الكبرى التي يؤمهاالشعراء من كل جانب ، ويزدحم على أبوابها أصحاب المواهب ، فتكون لكلٍ منهم مصدر وحيه وإلهامه ، حتى إذابزغ نجم العبقري منهمفيها، خفقت أجنحتهفي سمائها ، في هالة من النبوغ والمجد والخلود !

وتعود صورة الاندلس مرة رابعة ، عندما يزور الخديويعباس مدينة طنطا ، وللخديوييد على هذه البلدة حين بعث الحياة والعمران في « رسمها البالي » -- كما يقول شوقي [٢] — و « فجر فيها عيون العلم » بإشادة المعاهد والمدارس [٢]

انظر إلى كل عالٍ من معاهدها تنظر (طليطلةً)فيعصرهاالخالي

فـ (طليطلة) هنا تمثل دوراً لميكن لهافيتاريخالاندلس ،وصاحبة هذا الدور العظيم في حياة الاندلس هي قرطبة وجامُعها الكبير ،فإلى قرطبة لا إلى طليطلةكان الطلابُ يفدون من الشرق والغرب ، لينهلوا منها العلم ويتزودوا منالمعرفة ، وشوقي حين وَكَلَ إلى طليطلة هذا الدور ، لم يكن رصيده الاندلسي — فيما يبدو — كبيراً ،ولا نقول

١ ـ الشوقيات : ٢٠٧/١

٢ ـ المصدر السابق : ٢٣٨/١

إن الوزن الشعري هو الذي جاء بـ (طليطلة) هنا ، ولم يك قادراً على الاتيان بـ (قرطبة) ، فمثل شوقي الشاعر الكبير ، لا يستعبده الوزن ولا تحكمه الصنعة !

إلى هنا تظل صورة الاندلس غامضة غائمة في شعر شوقي ، ولن تتضح لأعيننا بعض الخطوط منها إلا في عام ١٩١٢ ، عندما تنهمر دموع الشاعر إثر سقوط (أدرنة) في يد البلغار ، وبسقوطها هوى الإسلام عن مقاطعة (مقدونيا) الاسلامية ، وضياع (مقدونيا) – في عين الشاعر صورة ثانية لضياع الاندلس[1] ، فقد خرج المسلمون من الاندلس بالامس ، وها هم أولاء اليوم يخرجون من مقدونيا ، فمقدونيا إذاً أخت للأندلس ، أو هي(أندلس جديدة) من حق الشاعر أن يبكيها ، ويصور الجرح الذي أصاب المسلمين بسقوطها[2]

يا أختَ أندلسٍ عليكِ سلامُ ... هوت الخلافةُ عنكِ والإسلامُ
نزل (الهلالُ[3])عن السماء فليتها ... طُويت وعمَّ العالمين ظلامُ
أزرى به وأزاله عن أوجه ... قدرٌ يحطُّ البدر وهو تمامُ

ومقدونيا والاندلس جُرحان أصيب بهما المسلمون من عرب وترك :

---

١ – انظر اسبانيا كما رآها السيّاح المسلمون .. ص ١٠٢
٢ – الشوقيات : ٢٨٧/١ قصيدة (الاندلس الجديدة)
٣ – يريد الراية العثمانية ، وهي رمز للحكم العثماني

جرحان تمضي الأمتان[1] عليهما هذا يسيل وذاك لا يلتام
بكما أصيب المسلمون وفيكما دفن اليراع وغيب الصمصام
لم يطو مأتمها وهذا مأتم لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت فيما نحب ونكره الأيام

وبعد أن يبكي الشاعر سقوط المقاطعات العثمانية واحدة واحدة ، وبعد ان يعدد ما ارتكبته دول البلقان في حربها للعثمانيين من فظائع ، يؤرث القسس حقد جنودها على المسلمين ، باسم المسيح، فإذا هم يقتلون العزل ويستبيحون الحرمات ، وبعد أن يصف سيل المسلمين الهار بين المهاجرين بعدسقوط مقدونيا ، يخاطب الأمة العثمانية، فينعي عليها تفرقها وتخاذلها ، ويدعوها إلى الاتحاد والوئام ، وترك التفاخر والغرور ، فقد :

وقف الزمان بكم كموقف طارق اليأس خلف والرجاء أمام

فموقف بني عثمان اليوم كموقف طارق فاتح الاندلس حين أحرق سفن الجيش،ودعا الجند إلى الصدق والعزيمة والرجاء والصبر .

هذه الصورة الحزينة الجريحة التي يرسمها شوقي لنكبة العثمانيين في (مقدونيا) طغت بألوانها على الصورة الأخرى التي أراد أن يصور فيها نكبة العرب في الاندلس ، ليعقد بين الصورتين صلة ، ويقارن بينهما ، ولكننا إذا قنعنا بما تقدمه هذه (المقارنة)من الخطوط المتشابهة

---

١ ـ العرب والترك

والألوان المتماثلة بين الصورتين ، قلنا إن رصيد شوقي من « الفكرة الأندلسية » لايزال فقيراً

ونحن - بعد هذا - نستطيع أن نؤكد أن رصيد شوقي من هذه الفكرة حتى هذا العام (١٩١٢ م) لايزيد عمّا له في هذه (الاندلس الجديدة) ، ومن ثم نفترض أن شوقي لم يلتفت إلى إغناء هذا الرصيد خلال السنوات الثلاث التي مرت عليه قبل نفيه ، وأنه حين غادر ترعة السويس في طريقه إلى المنفى ، كانت صورة الاندلس العربية هزيلة الملامح عنده ، لا تكاد تزيد عن الصورة التي يحملها المثقف العربي العادي ، من خلال قراءته نتفاً من تاريخ اسبانيا الاسلامية .. والذي يُبيح لنا أن نقبل هذا الافتراض أننا لم نجد من شوقي ميلاً إلى الاندلس ، في ظروف كثيرة يُسِّرَ له فيها التطواف في أراضٍ قريبة جداً من الاندلس . .

عندما أنهى شوقي السنة الاولى من دراسته في مونبليه في فرنسا ، لم يسمح له الخديوي توفيق بالعودة إلى مصر لقضاء عطلة الصيف فيها ، كما كان يريد ، و « أرسل إليه خمسين جنيهاً لينفقها في رحلة يختارها إلى أي بلد آخر غير مصر [1] » فاختار شوقي بعض المدن جنوبيّ فرنسا ، وأمضى فيها شهرين « قرير العين ، طيّب النفسِ ، ناعم البال [2] » ولم

---

١ — اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ص ١٤

٢ — مقدمة الشوقيات القديمة (الطبعة الثانية) ص ١٩

يفكر بزيارة اسبانيا وقد غدت جدّ قريبة منه !

وعندما أنهى السنة الدراسية الثالثة خرج منها متعباً مريضاً، فأشار عليه الأطباء أن يقضي أياماً تحت سماء أفريقيا، فاختار الجزائر وأمضى فيها أربعين يوماً[١]، دون أن تتجه نظراته إلى الاندلس القريبة منه.

وعندما أراد له الخديوي عباس أن يظل في أوربا ستة أشهر أخرى بعد إنهاء تحصيله، أمضى شوقي هذه الفترة الطويلة في باريس[٢]، ولم يذكر خلالها الاندلس

وعندما أتيحت لشوقي فرصة العودة إلى أوربا عام ١٨٩٤ ليحضر مؤتمر المستشرقين في جنيف، أمضى في سويسرا شهراً لم تجذب اسبانيا بعده نظراته إليها، وإنما جذبتها الآستانة، فعرّج عليها . .

بعد هذا يجوز لنا أن نجزم بأن « الفكرة الاندلسية » التي غادر شوقي بها مصر إلى منفاه تتمثل في قصيدته (الاندلس الجديدة)،

فلندرس إذاً تطور هذه الفكرة في شعره عندما تغذيها الأرض الاندلسية مباشرة خلال إقامة الشاعر في اسبانيا

— ٣ —

ما هي الآثار التي كتبها شوقي في المنفى ؟

---

١ — المصدر السابق : ٢٠ – ٢١

٢ — المصدر السابق : ٢١

إذا شئنا أن نصنف انتاج شوقي الاندلسي تصنيفاً زمنياً ، لتسهيل دراسته وملاحظة تطوّره ، قسمناه إلى أربع فئات ، كل فئة تساير مرحلة من مراحل حياته في منفاه :

المرحلة الاولى : الطريق من السويس إلى برشلونة

ليس لدينا من انتاج هذه المرحلة غير تلك القصيدة النثرية التي سمّاها شوقي « قناة السويس »[1] وتشغل عشر صفحات من كتابه (أسواق الذهب) وقد كتبها شوقي عندما كانت السفينة الاسبانية التي تحمله وأسرته إلى المنفى تجتاز قناة السويس [2]

المرحلة الثانية الإقامة في برشلونة

ونملك اليوم من هذه المرحلة أربعة آثار وهي :

١ ــ دول العرب وعظماء الاسلام : منظومة مطوّلة على بحر الرجز ، طبعت بعد وفاة شوقي بعام واحد ، في كتابٍ وحدها ، وقد أتم الشاعر نظمها في برشلونة ، كما يذكر ابنه حسين ، ويشير إلى أن عدداً من أبيات المنظومة لا يزال يغطي غلاف كتاب النحو الاسباني الذي كان شوقي يدرس فيه ، في برشلونة [3] ، أما عدد أبيات المنظومة فقريب من ألف وأربعمائة بيت ، هذا إذا حذفنا موشحة (صقر قريش)

---

١ ــ أسواق الذهب : ٢٦ ــ ٣٥

٢ ــ أسواق الذهب : ٢٦ ، أبي شوقي : ٣٠

٣ ــ أبي شوقي : ٤٤

من الكتاب [١] ، فهي فيه غريبة مقطوعة الصلة بالمنظومة ، من حيث الجوهر والمظهر ، ومكانها اللائق بها تلك الصفحات التي تحتلها بحق في ديوان الشاعر [٢] ، ثم إن الموشحة من إنتاج المرحلة التالية .

٢ ـــ رسالة إلى حافظ : وهي أبيات ثلاثة من البحر البسيط ، بعث بها شوقي من برشلونة الى حافظ ، وقد يتوهم بعض الباحثين أنها مقطوعة من قصيدة شوقي النونية التي عارض بها ابن زيدون ، وهي من آثار شوقي في هذه المرحلة أيضاً ، غير أن ديوان (الشوقيات) لا يحويها البتة ، وهي في ديوان حافظ [٣] ، وكانت نشرت في صحف مصر ، مع ردّ حافظ عليها ، في عام ١٩١٧ [٣] ، وكان شوقي لا يزال في برشلونة .

٣ ـــ قصيدة بعنوان (أندلسية) ، من البحر البسيط ، وهي التي عارض شوقي بها نونية ابن زيدون ، وأبياتها تزيد على الثمانين ، وفي مطلع القصيدة إشارة إلى (وادي الطلح) في اشبيلية [٤] ، وقد تضلل هذه الإشارة بعض الباحثين فيظنون القصيدة من آثار شوقي في اشبيلية ، ولكن الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة تؤكد أنها من انتاج الشاعر في برشلونة ، ذلك أن الشاعر يحن فيها إلى (كنزه) الذي خلّفه

---

١ ـــ دول العرب وعظماء الاسلام ص : ٧٨ ـ ٨٦

٢ ـــ الشوقيات ٢/٢١٤ ـ ٢٢٣

٣ ـــ ديوان حافظ ابراهيم ١/١٨٦ ـ ١٨٧

٤ ـــ الشوقيات : ٢/١٢٧

في حلوان وديعة عند الله :

كنز بحلوان عنـد الله نطلبه   خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كلّ عزيز عنه غيبتنا   لم يأته الشوق إلاّ من نواحينا
إذا حملنا لمصرٍ أو له شجناً   لم ندر أي هوى الأمّين شاجينا

وأم شوقي المريضة في حلوان فارقت الدنيا بُعيد إعلان الهدنة بقليل [1] ، ولم يغادر شوقي برشلونة إلا بعد أن بلغه نعيها .. ثم إن هنالك بيتين من القصيدة أرسلهاشوقي من برشلونة إلى مصر ،لعرضها على اسماعيل صبري ، وقد نُشرا في صحف مصر مع رد اسماعيل صبري في عام ١٩١٧ [2] ،وإذا رضينا بإلحاق الأبيات الثلاثة التي أرسلها إلى حافظ بالقصيدة كان ذلك دليلاً ثالثاً على أن (النونية) من آثار شوقي في برشلونة.

٤ ـــ رثاء شوقي لأمه : قصيدة ميمية من البحر الطويل [3] ، تزيد أبياتها على الخمسين ، وقد عارض الشاعر فيهـا قصيدة المتنبي في رثاء جدته ، ونظمها بعد ساعة من وصول نعي أمه إليه [1] ، وهي آخر ما نظم في برشلونة .

المرحلة الثالثة الرحلة إلى الأندلس .

---

١ — اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ٣١ والشوقيات : ٣/١٥٦

٢ — ديوان اسماعيل صبرى ٢/١٢٩

٣ — الشوقيات : ٣/١٥٦

ولدينا من هذه المرحلة آثار ثلاثة وهي

١ — قصيدة « الرحلة إلى الأندلس » ومقدمتها النثرية [١] ، وتقع المقدمة في صفحتين ، والقصيدة السينية في مائة وعشرة أبيات من البحر الخفيف ، عارض شوقي فيها سينية البحتري المشهورة التي وصف فيها إيوان كسرى ، ويقص شوقي في قصيدته هذه حكاية رحلته إلى الأندلس وطوافه بآثار العرب فيها .

٢ — موشحة صقر قريش : وتقع في أكثر من مائة وثلاثين بيتاً ، من بحر الرمل ، نهج فيها شوقي نهج ابن سهل الأندلسي في موشحته ، وقص فيها حياة صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، ونجد الموشحة [٢] في ديوان شوقي كما نجدها في كتابه (دول العرب وعظماء الاسلام) ، وفي اعتقادنا أن الديوان هو مكان الموشحة التي نظمها الشاعر وهو يطوف في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، وأن إثبات الموشحة في (دول العرب وعظماء الاسلام) لا ينبغي أن يدفع الى الشك في صحة نسبة الموشحة إلى هذه المرحلة ، ذلك أن أرجوزة دول العرب نظمت في برشلونة ، أما الموشحة فقد نظمت في البلد الذي كان الصقر يحل فيه والذي أصبح مثوى له بعد وفاته ، ومن هنا جاز لشوقي أن يخاطب قلبه في إحدى مقطوعات الموشحة [٣]

---

١ — الشوقيات : ٢/٥٢

٢ — الشوقيات : ٢/٢١٤ ودول العرب وعظماء الاسلام : ٧٨

٣ — الشوقيات : ٢/٢٢١

أيها القلب أحقٌّ أنت جار للذي كان على الدهر يُجير
هاهنا حلّ به الركبُ وسار وهنا ثاوٍ إلى البعث الأسير

إلخ

٣ ــ رواية أميرة الأندلس : مسرحية نثرية طبعت في جزء خاص، ويعتقد ولد الشاعر الأستاذ حسين شوقي أن أباه قد ألّف هذه المسرحية في برشلونة ، في السنوات الثلاث الأولى من نفيه ، وهو يصرح بذلك في كتابه عن أبيه [1] ، وفي رسالته الخاصة إلينا [2] ، وليأذن لنا ولد الشاعر في أن نخالفه هذه المرة ، ولا بأس من أن نذكّره بأنه هو الذي يقول أيضاً في صفحة أخرى من كتابه ذاته : « واشبيلية هي التي أوحت إلى أبي رواية (أميرة الأندلس) ، ففي (قصرها) المذكور التقى أبي بالأطياف المحبوبة لروايته [3] » هذه ، وهذا هو الحق الذي نرتضيه ولا نخالف عنه ، فقصر اشبيلية أوحى بالرواية إلى شوقي ، وفي حجرات القصر التقى الشاعر بأبطال روايته وأطيافهم ، ولكن شوقي لم يؤلف روايته إلا في السنتين الأخيرتين من حياته ، ويذكر لنا مؤتمنه السيد أحمد عبد الوهاب أن شوقي كان خلال اصطيافه في الاسكندرية

---

١ — أبي شوقي : ٤٤

٢ — كتب إليّ يقول : « في السنوات الثلاث الأولى من . كتب رواية (أميرة الاندلس) .

٣ — أبي شوقي : ٦٣ — ٦٤

عام ١٩٣١ يعمل في تأليف روايتي (عنترة) و(أميرة الأندلس)[١] ولم ينته من كتابة مسرحيته النثرية إلا في عام ١٩٣٢ [٢]

ولهذا كله لانهتم نحن في هذا الكتاب إلاّ بالجانب الأندلسي من المسرحية وهو ذلك اللقاء بين الشاعر وأطياف الرواية وشخصياتها في (القصر) من اشبيليه

المرحلة الرابعة العودة إلى مصر

لانملك لهذه المرحلة انتاجاً، غير أنه في وسعنا أن نعدّ قصيدة شوقي البائية[٣] التي نظمها إثر عودته من اسبانيا، أثراً أندلسياً، والقصيدة ستون بيتاً من البحر الوافر، وفيها شكر لاسبانيا على ضيافتها للشاعر المنفي، كما أنّ فيها صورة لذلك الاستقبال الرائع الذي أعدته القاهرة للشاعر العائد، والقصيدة تحمل عنوان (بعد المنفى)

هذا اذاً جماع آثار شوقي الأندلسية، بل هذا كل مااستطعنا أن نؤمن بأندلسيته من شعره ونثره، بعد دراسة أدبه المطبوع كله دراسة دقيقة، وقد شهدنا بعض الدارسين يتسرعون حين يضيفون إلى أندلسيات شوقي ماليس منها، ونظرة نقدية واعية في الأثر المضاف

---

١ — اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ١٠٢ — ١٠٣

٢ — مجلة الكتاب (عدد خاص عن شوقي وحافظ) السنة ٢ الجزء ١٠ اكتوبر ١٩٤٧ مقالة للأستاذ دريني خشبة ص : ١٦٣٩

٣ — الشوقيات : ١/٥٤

تكشف حقيقته ، مثال ذلك هذه الشوقية التي مطلعها [1]

بالله يانسمات النيل في السحر   هل عندكنّ عن الأحباب من خبر

يعدّها أحدهم [2] أندلسية ، ولكننا إذا ألقينا نظرة على الأبيات الثلاثة الأخيرة منها

مصر العزيزة مالي لا أودّعها   وداع محتفظٍ بالعهد مدّكرِ

خلّفتُ فيها القطا ما بين ذي زغبٍ   وذي تمائمَ لم ينهض ولم يطرِ

أسلمتهم لعيون الله تحرسهم   وأسلموني لظلّ الله في البشر

وجدنا شوقي فيها غريباً عن مصر ، وحيداً وقد خلف فيها أولاده صغاراً وفتياناً ، تحرسهم عيون الله ! أمّا في المنفى فقد كان جميع أولاده معه ، ولم يخلّف في مصر غير أمه المريضة في حلوان ، وغير أخت له واحدة « مرضت بعد سفره إلى اسبانيا في سني الحرب [3] » وليس في وسعنا ـ دون ريب ـ أن نعدّ أمه العجوز وأخته المريضة هذه أفراخ قطا زاغبة وذات تمائم !.. وإلى هذا تموج في القصيدة روح شاعر شاب ، فيه من مرح الشباب ولهوه مايدفعه إلى القول :

دع بعد ريقة من تهوى ومنطقه   ماقيل في الكأس أوماقيل في الوتر

---

١ ــ الشوقيات ١٥٣/٢

٢ ــ انظر مايقول أنطون الجميّل في كتابه (شوقي) ص ٧٧ : « وقال يناجي من منفاه أحبابه وعهده الماضي في وطنه بالله يانسمات »

٣ ــ اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء : ٣٢

ولا تُبالِ بكنزٍ بعد مبسمهِ أغلى اليواقيت ما أُعطيت والدُررِ
وشوقي في الأندلس ينوء تحت أعباء الخمسين !

— ٤ —

تبين لنا ممّا قدمناه أن في أندلسيات شوقي الشعر والنثر ، وأن أول أثر يطالعنا من أدبه في المنفى مقالته النثرية (قنـاة السويس) .. وعند دراسة هذا الأثر النثري يعرض لنا مثل هذا السؤال : ما السر في عدول شوقي عن الشعر إلى النثر في قسم كبير من انتاجه الأدبي عامة[1] وفي هذه المقالة بخاصة ؟ ألم يكن الشعر وحده قادراً على سدّ حاجته الفنية وهو الشاعر المجيد في شعره أبلغ الإجادة ؟

والجواب على ذلك لا يعدو — في نظرنا — أموراً ثلاثة : أولها رغبة شوقي في الظهور بمظهر من يتملك ناصيتي الأدب ،شعره ونثره معاً ، وكثير من أدبائنا خلال العصور كان لهم مثل هذا الحرص على الجمع بين الشعر والنثر ، وإن يكن عدد الذين نجحوا في استعمال هذين القالبين معاً محدوداً جداً ، والأمر الثاني إعجاب شوقي بالسجع إعجاباً

---

١ — راجع ما كتبه الدكتور شكري فيصل عن (نثر شوقي) في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (العدد الاول من المجلد ٣٤ ـ كانون الثاني ١٩٥٩)

٢ — أسواق الذهب : ص ١٠٩

لا حدّ له ، فالسجع عنده « شعر العربية الثاني[1] » وفي اعتقاده أن السجع ينوب عن الشعر ، فـ « كلّ موضع للشعر الرصين محل للسجع[1] » ولعلّه كان يرى في السجع الجميل المتفرّد صورةً لتلك الفواصل الرائعة في القرآن الكريم ، وأداةً للحفاظ على كثير من ألفاظ اللغة ونشرها ؛ والأمر الثالث ما يعترف به شوقي نفسه من أن الشاعر المطبوع تفوته أحياناً القدرة على صياغة الشعر ، فيستريح عند ذلك إلى السجع ، يسلو به عمّا فاته[1]

وفي عدول شوقي إلى النثر في مقالة (قناة السويس) سبب آخر ، ذلك أن الشاعر سبق له أن عالج موضوع المقالة نفسه في قالب الشعر معالجة مفصّلة في قصيدته الكبرى (كبار الحوادث في وادي النيل[2]) فليس عجيباً إذاً أن يستعمل القالب الآخر عندما يعود إلى الموضوع ثانية ، غير أن تناوله له في كل مرة من زاوية مخالفة أدّى إلى اختلاف بعض اللقطات اختلافاً يسيراً تسهل ملاحظته عند المقارنة .

إنّ نظرة تحليلية سريعة إلى مقالة (قناة السويس) تبيح لنا أن نحكم بأن شوقي الناثر لا يحجب عنا صورة شوقي الشاعر ، فنحن نجد في نثر شوقي خصائص الشعر منثورة فيه ، ففي جمله حلاوة الإيقاع الموسيقي ، وفي سجعاته ظلال القوافي الشعرية ، والسجع عنده ـــ كما

---

١ — أسواق الذهب ص ١٠٩

٢ — الشوقيات : ١/١–٢٠

قدّمنا ــ شعر العربية الثاني ، وهو « قوافٍ مرنة ريّضة خُصت بها الفصحى ، يستريح إليها الشاعر المطبوع ، ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله[١] » ، وشوقي يدعو إلى تمييز جميل السجع من قبيحه، فقد « ظلم العربية رجال قبّحوا السجع وعدّوه عيباً فيها ، وخلطوا الجميل المتفرّد بالقبيح المرذول منه[١] » .

ثم إن في نثر شوقي هذا الحرص الدائب على المزاوجة بين الجملتين، في توازن صوتي دقيق ، وفي هذا روح الموازنة بين شطري البيت الشعري ، كقوله :

« تلكما يا ابني القناة — لقومكما فيها حياة
ذكرى اسماعيل وريّاه — وعُليا مفاخر دنياه
دولة الشرق المرجّاه — وسلطانُه الواسع الجاه إلخ..[٢] »

وكثير من جُمل شوقي في (قناة السويس) أشطار بحور شعرية موزونة ، وهذه نماذج منها :

يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم[٣] — شطر من الرجز
وأين العيانُ وأين الخبرْ[٤] — شطر من المتقارب

---

١ ــ أسواق الذهب : ١٠٩
٢ ــ المصدر السابق : ٢٧
٣ ــ المصدر السابق : ٢٨
٤ ــ المصدر السابق : ٢٩

ماذا على هذه الرمالِ [١] شطر من مخلّع البسيط

خليلُ ذي الجلال والإكرام [٢] شطر من الرجز

يسير من كيدٍ إلى كيد [٣] شطر من السريع

وسُجوف القصور بعد السجون [٣] شطر من الخفيف

لعبتْ على عرصاتها الأقدار [٤] شطر من الكامل

ولا يصعب علينا بعد هذا أن نجد في الجملتين المزدوجتين بيتاً كاملاً ، كقوله « إنَّ للنفي لَروعة ، وإن للنأي لَلَوعة[٥] » فإنّ فيه بيتاً من مجزوء الرمل :

إنّ للنفي لَروعه إنّ للنأي لَلَوعه

وإذا أضفنا إلى الذي قدمناه ما نجده في (قناة السويس) من صور وأخيلة شعرية كثيرة أدركنا أن نثر شوقي شعر منثور ، توفر فيه القوافي والايقاعُ الموسيقي وازدواجُ الجمل وتوازنها والصورُ والأخيلة الشعرية ، والحق أن (قناة السويس) قصيدة نثرية مصغرة، كثف فيها شوقي قصيدته الشعرية الكبرى (كبار الحوادث في

---

١ — أسواق الذهب : ٣١

٢ — المصدر السابق : ٣١-٣٢

٣ — المصدر السابق : ٣٢

٤ — المصدر السابق ٣٣

٥ — المصدر السابق : ٢٨

وادي النيل) التي نظمها قبل عشرين عاماً، وألقاها في مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤ في جنيف .

إذا تركنا الصفحات الثلاث الأولى من (قناة السويس) ورحنا نقرأ الصفحات الباقية ، طالعتنا منها مواكب الأجيال ، تمرّ خلال العصور في تاريخ مصر ، يتقدمها موكب أبي الأنبياء ابراهيم الخليل وقد جاء مهاجراً إلى مصر ، يتبعه النبي يوسف وقد انتقل من القيد والسجن إلى العز والدولة ، ويصل بعده موسى هارباً خائفاً يترقب ، حتى إذا وجد الأمن واليمن في ربوع ذاك الفضاء ، كرَّ عائداً إلى مصر ليقتحم بعصاه على فرعون جبروته ! ثم تبدو لأعيننا أم الكلمة مريم ، تقبل هاربة مطارَدة ، وعلى ذراعيها وليدها المسيح ، أخرجها الظلَمةُ من أرضها ، بعد أن سرَحوا في عرضها ...

ثم ننظر فإذا جحافل (الهكسوس[1]) على إبلهم الصعاب وخيلهم العراب، قد « انقضوا على الوادي ذئاباً ، فأخافوا القرى الآمنة ، وأخرجوا من مصر الفراعنة ، واستبدوا بالملك فيها آونة[2] ».

هذه الحملة على ملوك الرعاة ، نجد صورتها المكبرة في قصيدة (كبار الحوادث) وهذه بعض خطوطها[3]

---

١ — ملوك الرعاة أو الهكسوس فاتحون من آسية غزوا مصر سنة ١٦٧٥ قبل الميلاد .

٢ — أسواق الذهب : ٣٣

٣ — الشوقيات : ١/٣-٤

مـا الذي داخـلَ الليالِيَ منـا ... في صبـانا ولليـالي دهـاءُ
فعلا الدهرُ فوق علياء فرعو ... ن وهمت بملكه الأرزاءُ
أعلنت أمرها الذئاب وكانوا ... في ثياب الرُعاة من قبلُ جاءوا
وإذا مصرُ شاةُ خيرٍ لراعي الـ ... سوء تُؤذى في نسلها وتُساءُ
قـد أذل الرجالَ فهي عبيد ... ونفوس الرجـالِ فهي إماءُ

ثم يغيب موكب الهكسوس لنشهد بعده تدفق الفرس على مصر مثل « الوحوش الضارية ، والجوارح الكاسرة ، يقودها [قمبيز] شرّ الأكاسرة ... تكتسح الديار ، باغيةَ السيف طاغيةَ النـار ، تـدك الهياكلَ والمعاقل ، وتهتك العقائد والعقائل[1] »

هذه الصورة النثرية القاتمة لحملة الفرس وقائدهم قمبيز على مصر تلخص بدقة ماكان نظمه شوقي في همزيته[2]

لا رعاكَ التاريخُ يا يوم قمبيـ ... زَ ولا طنطنت بك الأنباءُ
دارت الدائراتُ فيك ونالتْ ... هـذه الأمـةَ اليدُ العسراءُ
فبمصرٍ ممّـا جنيت لمصرٍ ... أي داءٍ مـا إنْ إليهِ دواءُ
نكدٌ خالدٌ وبؤسٌ مقيمٌ ... وشقـاءٌ يجـد منه شقاءُ
يوم منفيس[3] والبلادُ لكسرى ... والملوكُ المطـاعةُ الأعـداءُ

---

١ — أسواق الذهب : ٣٤

٢ — الشوقيات : ١/٦—٨

٣ — هي مدينة (منف) وكانت عاصمة البلاد آنذاك .

يأمرُ السيفُ في الرقاب وينهى وَلِمصرٍ على القذى إغضاءُ
لا تسلني ما دولةُ الفرس ساءتْ دولةُ الفرس في البلاد وساءوا
أمّةٌ همّها الخرائبُ تُبليها وحقّ الخرائب الإعلاءُ
سلبت مصر عزها وكستها ذلّةً مالها الزمانَ انقضاءُ
وارتوى سيفُها فعاجلها اللهُ بسيف ما إن له إرواءُ

وهذا (السيف) الذي قضى على حكم الفرس في مصر، هو الاسكندر الأكبر المقدوني، وعطفُ شوقي على الاسكندر وتصويره إياه بالسيف نجدهما في (قناة السويس) و (الهمزية) بألفاظ متقاربة[1]

ويجيء بعد ذلك موكب الفتح العربي، يتقدمه عمرو بن العاص، جاء مع صحبه« يفتحون للحقّ، ويفتكون بالرقّ، حتى أخلوا القصور من القياصرة، وأراحوا مصر الصابرة، من صلف الجبابرة[2]».

ثم يصل موكب صلاح الدين الأيوبي، يقود الجيش إثر الجيش، ويبشّر كل يوم بفتح جديد. ولكلٍ من عمرو بن العاص وصلاح الدين الأيوبي في (الهمزية) أيضاً صورة مجيدة مشابهة[3]، نظم فيها شوقي مفصلاً ما ينثره هنا موجزاً مختصراً

---

١ — أنظر أسواق الذهب : ٣٤ والشوقيات : ١/٨

٢ — أسواق الذهب ٣٤

٣ — الشوقيات : ١/١٦-١٧

ويمر بعد ذلك موكب نابليون ، لنراه وقد ركب طيشه،وخاطر بجيشه ، طمعاً في مُلك مصر [١]

وأتى النسرُ ينهب الارضَ نهباً حوله قومُه النسورُ ظِماءُ
يشتهي النيلَ أن يشيد عليه دولةً عرضُها الثرى والسماءُ
جاء طيشاً وراح طيشاً و مِن قبـ لُ أطاشتْ أُناسها العلياءُ

وهكذا يلتقي أيضاً قالب الشعر وقالب النثر في التعبير عن المعنى الواحد بألفاظ متشابهة ..

ويصل أخيراً موكب الخديوي اسماعيل الذي تمّ فتح القناة في عهده ، لنراه وقد حشر الجموع وحشد الحافرين ، ووصل بين البحرين بالقناة ، فقال الناس إنه بلغ غاية الظفر ، وقال آخرون : إن الحافر قد وقع فيما حفر [٢]

ونقف عند السطر الأخير لنرى (قناة السويس) وقدأصبحت في يد (القوم) ، ومن هؤلاء القوم ؟ إنهم الانكليز طبعاً ! ولكن شوقي يشير ولا يصرح ...

---

١ — أسواق الذهب : ٣٥ والشوقيات ١/١٨

٢ — يردد شوقي في هذه الفقرة فكرة عرضت له في حداثته ، فهو يقول من قصيدة يحدّد فيها جغرافية أفريقيا ، مرتجلاً ، وكان لايزال تلميذاً ،والحديث عن القنال:

أنشأه اسماعيلُ عنوان الظفر فوقع الحافر فيما قد حفر

(راجع الشوقيات القديمة : الطبعة الثانية ص ٦)

لقد لخص شوقي في هـذه المواكب تاريخ مصر ، منذ كانت مهد النبوات إلى تلك الساعة التي كان الشاعر وأهله فيها يعبرون القناة، في طريقهم الى المنفى ، ويرون على ضفتيها معسكرات الغاصب المحتل !

ويحق لنا الآن أن نتساءل عن حصة النفي والمنفى في (قناة السويس)، فذلك ما نهتم به أوّل كل شيء في هذا الكتاب ، ولهذا نعود إلى الصفحات الثلاث الأولى التي تركناها ، فما الذي نجده فيها ؟

هذا تمهيد لا بد منه لدرس التاريح الذي ألقاه شوقي ، فقصّ فيه حكاية مصر خلال العصور ، وقد شرح الشاعر في تمهيده طبيعة المناسبة التي تقوده إلى الحديث عن القناة ، وهي اجتيازه وأسرته القناة في طريقهم الى المنفى ، كما بيّن أيضاً أهمية القناة وخطرها ، فهذا المجاز المائي العكر خلاصة تاريخ مصر ، ومن استولى عليه فقد ضمن لنفسه النصر

يقول شوقي لولديه علي وحسين ، وكانوا جميعاً على ظهر السفينة الاسبانية ، وهي تعبر بهم القناة ، يتطلّعون إلى الرمال على الضفتين :

« تلكما يا ابنيّ القناة ، لقومكما فيها حياة ، ذكرى اسماعيل وريّاه ... تعبرانها اليوم على مُزجاة[1] ، كأنها فُلك النجاة ، خرجت بنا بين طوفان الحوادث ، وطغيان الكوارث[2] ..الخ » .

---

١ — المزجاة السفينة ، من أزجى الفُلك إذا ساقه وأجراه

٢ — أسواق الذهب ٢٧

لقد خرجت السفينة بهم إذاً والحرب الكونية قائمة ، ليستقبلوا بحراً « جنّت جواريه ، ونزت بالشرّ نوازيه ، وتمثّلت بكل سبيل عواديه[1] » فهم إذاً يخافون ويلات الحرب ، من غوّاصات تغرق السفن ، وطيارات تلقي بالقذائف وتنشر الموت والهلاك .. ويتمثل خوف شوقي في هذه المناجاة الحزينة للسفينة وهي تشق الماء: «سيري عوّذتُك بوديعة التابوت[2] ، وبصاحب الحوت[3] ، وبالحي الذي لايموت ، واسري يا ابنة اليمّ زمامك الروحُ ، ورُبّانك نوح ، فكم عليك من منكوبٍ ومجروح ..[4]» وتستطيع هذه المناجاة بما فيها من لوعة صادقة وإيمان عميق وهدوء حزين ، أن ترسم لنا جانباً من التجربة التي كان الشاعر المنفي يعيشها آنذاك ، وهو الجانب الحزين ، وتتمثل شوقي من خلاله شيخاً مؤمناً متهدّماً صابراً مستسلماً ، خائفاً من «بَغَتات الماء وفُجاءات السماء[1] » راجياً أن تصل السفينة به وبأهله سالمين إلى برشلونة !

ولكن أين صورة الجوانب الأخرى من هذه التجربة العنيفة ؟ أين الجانب الغاضب الثائر على الذين أخرجوا الشاعر من وطنه،

---

١ — أسواق الذهب : ٢٧

٢ — هو موسى عليه السلام

٣ — هو يونس عليه السلام

٤ — أسواق الذهب : ٢٨

في فورة هذه الحرب الغاشمة ، ولم يرحموه أو يرحموا صغاره ، فقذفوا بهم جميعاً في بحر هائج مائج ، مملوء ببغتات الماء ، مُترع بفجاءات السماء ! أيكون خوف شوقي من مغتصب بلاده قد كبح من جماح ثورته ، ذلك أنه عدوٌ « مضريّ الغضبة ، قد أخذ الأُهبة ، واستجمع كالاسد للوثبة [1] » كما يصفه ، فالخير له — مادام يرجو العودة السريعة إلى وطنه — ألاّ يستثيره بثورته ، وأن يداريه ليأمن شره وانتقامه ، ولا بأس بعد ذلك من أن يحمّل القدر مسئولية نفيه ، فقد « جرت أحكام القضاء ، بأن نعبر هذا الماء ، حين الشر مضطرم ، واليأس محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت جذلان مبتسم ، يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم .. [2] »

ومع ذلك ، في هذه الكلمات ، على الرغم من غموضها وإبهامها ، صورة للغضب المكبوح والثورة المكبوتة في قلب الشاعر المنفي ، وإذا كان يؤثر لنفسه السلامة على إثارة هذا العدو المغتصب المستعمر ، فإنه يؤثر أيضاً ألاّ يُداري أعوان المستعمر من أبناء وطنه ، فهذه الحكومة المصرية الراضية بذلها تحت الحماية ، دميةٌ تحركها يد الاحتلال ، وهي حين أمرت بنفي شوقي ، تشفياً وانتقاماً ، كانت تنفّذ إرادة الغاصب المحتل : « نفانا حكّام عُجْم ، أعوانُ العدوان

---

١ — أسواق الذهب : ٢٧

٢ — المصدر السابق : ٢٨

والظلم ، خالفناهم يفرحون بذهب اللجم ، ويمرحون في أرسان يسمونها الحكم . ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه ؛ سامحهم في حقوق الافراد وسامحوه في حقوق البلاد ..[1] »

وهكذا يصل شوقي في هذه الأسطر الأخيرة إلى ذروة غضبه وثورته على الخائنين من أعوان المستعمر ، ممن باعوا وطنهم في سبيل الوصول إلى الحكم ، وقبلوا أن يكونوا مطيةً للغاصب الدخيل ..

ومن السهل أن نجد السرّ في إعلان شوقي ثورته العنيفة هذه ، في صراحة وقوة ، فعلى سدة الحكم في مصر الآن السلطان حسين كامل ، صنيعة الانجليز ، جاءوا به بعد عزل الخديوي عباس، ليحكم بامرهم ، وفي مهاجمة السلطان وفاءٌ من الشاعر لذكرى سيده الخديوي السابق ، وصورةٌ من غضب شوقي على من كان الأداة الطيّعة في يد المستعمر لإخراجه من وطنه .

وهكذا ننتهي من دراسة أول أثر من انتاج شوقي في المنفى دون أن نجد للأندلس رصيداً فيه ، ومع ذلك تظل لهذه القصيدة النثرية قيمتها ، فهي في نظر الفن « نادرة النظائر والأشباه [2] » وهي في نظر العلم « درسٌ جميل بليغٌ في تاريخ مصر منذ أقدم العصور»[3]

---

١ ـ أسواق الذهب ٢٨

٢ — الأسمار والأحاديث لزكي مبارك : ١٥٩

٣ — انظر التوطئة لمقالة (قناة السويس) : أسواق الذهب ٢٦

وهي أخيراً ـ من حيث موضوع كتابنا ـ تصور تجربة شوقي النفسية وهو في طريقه إلى منفاه .

— ٥ —

الأثر الثاني في أندلسيات شوقي أرجوزُته في (دول العرب وعظماء الإسلام) وهي أضخم انتاجه الأندلسي ، وهو يرسم لنا في مقدمتها طبيعة الأحوال التي رافقت نظمها ، ويحدّثنا عن الغاية التي يبتغيها منها ، فقد كان الشاعر المنفي في برشلونة مثقلاً بهمومه وآلامه ، فابتغى وسيلة يدفع بها هذه الهموم عن نفسه ، ويقتل بها البطالة والفراغ ، فيسر الله له أن ينظم من سير الرجال مايستعظم ، ليكون هذا النظم شعلة هداية ، تُنير للأحداث طريقهم إلى المجد وجلائل الأعمال [1] :

فكنتُ أستعدي على الهمومِ — بناتِ فكرٍ ليس بالملموم
أستدفعُ الفراغَ والعطالهْ — وبطلٌ من يقتلُ البطالهْ
حتى أراد اللهُ أنْ نظمتُ — من سِيَر الرجال ما استعظمت
علماً بما تبعثُ في الأحداث — جلائلُ الأعمال والأحداثِ

وإذا تساءلنا عن السر في اختيار شوقي للرجز وعدوله عن أبحر

---

١ — دول العرب وعظماء الاسلام : ص ٦

الشعر الأخرى أجابنا الشاعر نفسه بأنه اختار الرجز لأنه لا يرى في هذا البحر الواسع مركباً للعاجزين عن ركوب البحور الأخرى ، ولأن قيمة الشعر بالفكرة والصياغة ، وليست بالبحور الشعرية[1]

واخترتُ بحراً واسعاً من الرجز   قد زعموه مركباً لمن عجز
يروق رأياً وأرى خلافَهْ   الكأسُ لا تُقومُ السُلافَهْ
وقيمة اللؤلؤ في النحورِ   بنفسه وليس بالبحور

وشوقي يُشير هنا إلى (أعداء الرجز) هذا المركب العاجز المسكين ، وقد استصغر هؤلاء شأنه واحتقروه وسموه « حمار الشعر » ، وأخرجه بعضهم من نطاق الشعر إطلاقاً ، فإذا الرجز عندهم غير الشعر[2] ، والراجز غير الشاعر[3] ، وإذا الكلام عندهم نثرٌ وشعر ورجز ، كما يعلن المعري[4] ، وأبو العلاء من أشد أعداء الرجز ، وفي فصل الزاي من (لزومياته) حملة عنيفة على الرجز والرجّاز :

---

١ — دول العرب وعظماء الاسلام : ص ٦

٢ — العمدة لابن رشيق : ١/١٦٠—١٦١

٣ — راجع لسان العرب (مادة رجز)

٤ — يقول المعري في اللزوميات ٢/١٠

أوجز الدهر في المقال إلى أنْ   جعل الصمت غايةَ الإيجاز
منطقاً ليس بالنثير ولا الشـ   ـر ولا في طرائق الرجّاز

قصرت أن تُدرك العلياء في شرف ... إن القصائد لم يلحق بها الرجز[1]
ولم أرقَ في درجات الكريم ... وهل يبلغ الشاعر الراجزُ[2]
ومن لم ينلْ في القوم رتبةَ شاعرٍ ... تقنَّع في نظمٍ برتبة راجز[3]

وفي (رسالة الغفران) يعدّ المعري الرجز « من سفساف القريض[4] » ويجعل أبيات الرجّاز في الجنة حقيرة « ليس لها سموق أبيات الجنة »[5] ويُطلق فيهم حكمه القاسي : « قصّرتم أيها النفر فقُصر بكم ![4] » .

هذه الحملة العنيفة على الرجز والرجاز نجد لها صدى في أكثر كتب الأدب القديمة ، وآية ذلك أنهم يعدون الرجز مركباً ليناً سهلاً وطيئاً ، لا يمتنع على كل عاجز ، فالشاعر — كما يقول ابن رشيق — يقول الرجز ولكن الراجز لا يقول القصيد[6] ، ثم إن الرجز يتسع صدره لفيض من الزحافات والجوازات ، مما يضيق القصيد عن أكثره ، ومن هنا جاء استخفافهم بالرجز[7]

---

١ — اللزوميات : ٢/٣
٢ — المصدر السابق : ٢/٥
٣ — المصدر السابق : ٢/٧
٤ — رسالة الغفران : ٢٩٨
٥ — المصدر السابق : ٢٩٧
٦ — العمدة ١/١٦١
٧ — أمالي المرتضى : ٢/١٨٤

أبالأراجيز ياابن اللؤم توعدني وفي الاراجيز-خلت-اللؤم والخور

ففي الأراجيز ، في نظر أعدائها ، لؤم وخور ، وشوقي يخالف هؤلاء ، وينتصر للرجز ، ويتخذ منه قالباً لمنظومته التاريخية في (دول العرب وعظماء الإسلام) ، ويلتزم فيها مالا يلزم ، وإن يك ترك هذا القيد — كما يقول — أليق وأحزم به [١]

شعر لزمت فيه مالا يلزم وتركه أليق بي وأحزم

ولكنه التحدي يدعو خاطره ، فيستجيب له ويحذو حذو السلف ، ولعله يشير بذلك إلى أبي العلاء ولزومياته

يبدأ شوقي هذه المنظومة التاريخية بالكلام على لغة العرب ، ويسير مع التاريخ الزمني فيؤرخ للسيرة النبوية وللخلفاء الراشدين الأربعة ، ثم يقف عند معاوية يمجد عبقريته ويتغنى بسعده [٢]

في الدهر لم تصنع قيون الهند ولم يسل الشرق كابن هند

العبقري الملك الخليفه السعد كان أبداً حليفه

ولكن شوقي لا ينسى أن ينعي عليه قطعه نظام العهد في الاسلام وأخذه البيعة لولده يزيد ، فتلك جناية دفع إليها حب الآباء للابناء ، وعند الله حسابه [٢]

---

١ — دول العرب وعظماء الاسلام : ص ٦

٢ — المصدر السابق : ص ٦٠

وثَمَّ ما يسألُ عنه اللهُ ... وصاحبُ الدين ومن تلاهُ
قطعُ نظامِ العهدِ في الإسلامِ ... وأخــذُه البيعةَ للغلامِ
حتى علا التاجُ على العمامهْ ... وعاد مُلْكاً نسَقُ الإمامهْ
جنايةٌ أدركتِ الأجنَّهْ ... ووقفت الدين في الأعنَّهْ
تحت هوى الآباء للأبناء ... حبّ البقاء وقِلى الفناء

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الكلام على عمرو بن العاص وفتحه لمصر، وهنا يتمهّل شوقي في السير، ليلحق ابنُ الزبير وجنده بابن العاص عند أسوار بابليون، ومن ثم تنهار الحصون، وتستسلم البلدان، ويتم الفتح، وينتقل الشاعر إلى ابن الوليد، بعد ذلك، ليسايره في فتوحاته، حتى يهزم هرقل وجيشه [1]

أقبلَ سيفُ الله يزجي خيلَهْ ... ويل هِرَقْلٍ منهم وَيْلَهْ
تراءيا على تفاوتِ الفئه ... ذا مئتا ألفٍ وذا نصفُ المئه
يومٌ كبدرٍ في الفتوحِ منزلَهْ ... أمسى هرقلٌ بعده لا عزَّ لَهْ

ثم يعود شوقي بعد ذلك إلى دولة بني أمية، ليفخر بلونها العربي الأصيل [2]:

ما تلك إلاّ دولة الزمانِ ... حلّت محلَّ دولة الرومانِ
من الطّراز العربي الأولِ ... على الدخيلِ قطّ لم تعوّلِ

---

١ — دول العرب وعظماء الاسلام ص ٧١-٧٢

٢ — المصدر السابق : ٧٤

وبعد أن يعدّد شوقي مآخذه الكبيرة على الأمويين من انغماسهم في الشهوات والترف ،وتوليتهم كل ظالم غاشم ، لاتعف يداه عن دماء بني هاشم ، ولعنهم على المنابر خلاصة الأكابر ،وغدرهم بموسى بن نصير الوفي ، يرافق الشاعر صقر قريش من دمشق إلى قرطبة [١] :

حتى إذا قيـــل خلت مروانُ   وذهب السلطـــانُ والأعوانُ
تلفّت الناسُ وراءهم عجب   الكوكبُ الشرقي في الغرب احتجب
صقرُ قريشٍ منعوه جِلّقا   فطار في قرطبـــةٍ وحلّقا
أنشأ مُلكاً أموياً ضخمـــا   كمُلك كسرى رُقعـــةً وَتخْما
ودولةً قصر عنها قيصـــرُ   سما بها الممدّنُ الممصّرُ
زهراءُ في قُرطبـــةٍ تألّقُ   بغدادُ منها اقتبست وجِلّقُ

ثم نقلب الصفحة فاذا نحن أمام موشحة من أروع الشعر وأغناه إيقاعاً وموسيقى وعاطفة وروحاً فنية [٢] !

كلاّ ، فهذه الموشحة ليس مكانها هنا ، وقد أحسن شوقي حين وضعها هناك ، في ديوانه ، وأظن أن الذين نشروا هذه الأرجوزة بعدوفاته [٣] هم الذين صنفّوها ، وأقحموا فيها ما ليس منها ، وما أظن أحداً يصدق أن تلك الموشحة الرائعة هي ابنة الفراغ والسأم والبطالة ؛ إنها دون

---

١ — المصدر السابق : ٧٦-٧٧

٢ — المصدر السابق : ٧٨-٨٦

٣ — طبع كتاب (دول العرب) بعد وفاة شوقي سنة ١٩٣٣

ريب من وحي تلك الاجواء الأموية الخالصة التي غمرت قرطبة بها نفس الشاعر المنفي .. ثم هي لا تمت بأية صلة إلى ما اعتمد الشاعر من رجز ، وما التزم ممّا لا يُلتزم ، والموشحة — بعد كل ذلك — تكرر بعض ما جاء في الأرجوزة ، ففي هذه - كما رأينا - صورة لصقر قريش بعد مغادرته الشرق إلى الغرب، حيث أنشأ الدولة الأموية في الاندلس، وهذه الصورة مكررة مكبّرة في الموشحة ، ولو أن مكان الموشحة في (دول العرب) لاستغنى شوقي بهذه الصورة عن تلك !

ثم يسير شوقي مع قوافل التاريخ ، فيمر بخلافة عبد الله بن الزبير، وخلافة السفاح ، ويقف عند أبي مسلم الخراساني داعية العباسيين قبل أن يصل إلى المنصور وأعماله في دعم ملك بني العباس .

ثم نقلب الصفحة ليطالعنا وجه الفـــاطميين !

ما سرّ هذه القفزة المفاجئة، وكيف طوى شوقي عصر بني العباس الذهبي دون أن يرينا مواكب الرشيد والمأمون والمعتصم ! وكيف يأتي دور الخلافة الفاطمية ودولةُ العباسيين تحت المنصور، وأمامها بعدُ عمرٌ مديد وسلطان شديد! يقول شوقي [1]

قام إمامٌ من بني فاطمةٍ خليفـــةٌ ثم تلاه من تلا
ماعجبي لِمُلكهم كيف بُني بل عجبي كيف تأخر البنـا

فكيف يقدّم شوقي هنا ما يعجب من تأخّره ؟ وأين وعده بأن

١ — دول العرب وعظماء الاسلام : ١٠٠

يلتزم في قوافيه ما لا يلزم ، ولماذا آثر مع الفاطميين كسر هذا القيد ، وهل ملّ تلك القوافي المنوعة المزدوجة فاختار للفاطميين قافية موحدة، على روي الألف المقصورة ؟

هذه أسئلة لا نجد لها جواباً ، فهل يكون هذا الفصل المعقود للفاطميين قد أُلحق بالمنظومة ، ألحقه الشاعر في مصر بعد عودته إلى وطنه ، ليتمّ له بذلك جمع عظماء العرب من أرباب الدول الاسلامية في كتاب يدفع به إلى النشر ، وأدركته الوفاة قبل النشر !! هذه ظنون تظل مفتقرة إلى ما يدعمها

ومهما يكن من شيء فان شوقي يرافق الفاطميين إلى مصر، ويمجّد خلافتهم فيها ، ثم يغيب ، وتنتهي المنظومة ، ونواجه عند ذلك سؤالاً لا بد لموضوعنا من إثارته : أين نصيب « الفكرة الأندلسية » من هذا الأثر الأندلسي الضخم ؟

الحق أننا بعد حذف (موشحة صقر قريش) لا نعثر إلا على إشارة أو إشارتين غامضتين كل الغموض ، عن الدولة الأموية في الغرب ، إلى جانب أبيات سبعة في عبد الرحمن الداخل أدت إليها طبيعة الحديث عن انهيار دولة بني أمية في الشرق وانتقالها إثر ذلك إلى الاندلس .

عجيبٌ أن تكون المنظومة في (دول العرب وعظماء الاسلام) ولا يكون لدولة الأمويين في الاندلس نصيبها اللائق بها، وهي دولة عربية لا ينكر أحد عظمة بعض خلفائها كالناصر وابنه الحكم، والشاعر

قد نظم أرجوزته هذه في برشلونة ، في جوار الاندلس ، حيث عاش هؤلاء العظماء وقامت دولتهم المجيدة الزاهرة !!

في منظومة شوقي إذاً ثغرة واضحة ، ويزيدنا إحساساً بها أن نقارن بين أرجوزة شوقي التاريخية هذه وأرجوزة أخرى في التاريخ، وفي اعتقادنا أن الشاعر المنفي سار على نهجها، تلك هي منظومة أبي عبدالله ابن الخطيب ذي الوزارتين ، وقد أسماها «رقم الحلل في نظم الدول[1]»

إن أوجه الشبه بين منظومتي شوقي وابن الخطيب تبدو لنا غريبة حقاً إذا لم نؤمن باطّلاع شوقي على «رقم الحلل»، ذلك أن غاية الشاعرين واحدة ، فابن الخطيب يرمي إلى تسهيل حفظ التاريخ على دارسه ، وشوقي نظم أرجوزته للأحداث ، ليجدوا في قراءتها أو حفظها ما يثير في نفوسهم جلائل الأعمال ، ومنظومة شوقي في فصول وأرجوزة ابن الخطيب مثلها ، وفي أحايين كثيرة نجد ظلال أفكار ابن الخطيب في منظومة شوقي : يقول ابن الخطيب في المقدمة[2] :

الحمدلله الذي لا يُنكره ... من سرحت في الكائنات فِكَرُهْ

ذي الفضل والقدرة والجلال ... مخترع الخلق بلا مثال

الملك الحق بلا نهايهْ ... ومن له في كل شيء آيه

ويقول شوقي في مقدمته أيضاً[3] :

---

١ — (رقم الحلل في نظم الدول) لأبي عبد الله بن الخطيب السلماني : طبعة تونس.

٢ — رقم الحلل : ص ٢

٣ — دول العرب وعظماء الاسلام : ص ٥

الحمدُ لله القديم الباقي ذي العرش والسبعِ العلا الطباق

الملكِ المنفردِ الجبار الدائم الجلال والإكبار

وارثِ كل مالكٍ وما ملكْ ومُهلكِ الحي ومُحيي من هلَكْ

ويقول ابن الخطيب [١]

ثم صلاة الله والسلامُ على من انجاب به الظلامُ

صلى عليه الله ما نجمٌ بدا وما حمامُ البان في البان شدا

ورضي الرحمنُ عن أصحابه الواثقين بِعُلا جنابه

أئمة الرشد وأعلام الهدى وسُرُجِ الحق وأمطار الندى

ويقول شوقي أيضاً [٢]

وأفضل الصلاة والسلام على أجلّ رسل السلام

صلى عليه الله في سمائه وعرشه السابح في أسمائه

وجعل الجنة من رحابه وزفّها لمحسني أصحابه

خلائف الحق أئمة الهدى الرافعين بعده ما مهّدا

ويقول ابن الخطيب في فصل « رسول الله » [٣]

لمّا أقام الله رسمَ الحقِ بالحاشر العاقبِ [٤] هادي الخلق

لاح الهدى وانقشع المحذور وعمّ آفاق البلاد النورُ

---

١ — رقم الحلل : ص ٣-٤

٢ — دول العرب وعظماء الاسلام: ص ٥

٣ — المصدر السابق : ص ٥

٤ — الحاشر العاقب من أسماء النبي ، وابن الخطيب يشرح نثراً كل فصل من كتابه إثر انتهائه منه ، وقد يردّ قارئه إلى مصادره التي اعتمد عليها .

ويقول شوقي في فصل « السيرة النبوية » أيضاً[1]

لمّا أخال[2] الرشد والهدايه   وانقشع الضلالُ والغوايه

ولكن منظومة ابن الخطيب تفرد فصلاً كاملاً لـ « دولة بني أمية بالأندلس » تتحدث فيه عن خلائفهم ، وتقف عند الناصر وحروبه وبنائه الزهراء وقفة خاصة[3] :

وقام بالأمر الحفيدُ الناصرُ

فأقبل السعدُ وجاء النصرُ   وأشرق الأفق وضاء القصر

وساعد السعد فعاد وانثنى   ثم بنى الزهراء فيما قد بنى

إلخ ...

وكان على شوقي أن يكون له في منظومته فصلٌ مماثل، على الرغم من أن أرجوزة ابن الخطيب تمتاز بأشياء أخرى ، فهي تصل بالتاريخ العربي إلى عصر ناظمها ، وشوقي يقف عند انهيار الخلافة الفاطمية ؛ وابن الخطيب يسير سيراً تأريخياً ، وشوقي يقف عند الذي يستعظمه من التاريخ ويدع ما لا يستعظم منه .

حظ الأندلس من أرجوزة شوقي هزيل كما رأينا ، فما هو حظ الفن منها ، أو من هذه المزدوجات التاريخية جملةً ؟

---

١ — دول العرب وعظماء الاسلام : ص ٢٥

٢ — أخال : بشّر بالخير .

٣ — رقم الحلل : ص ٣٨

من المؤسف أن القيمة الفنية لهذه المزدوجات كلها هزيلة أيضاً ، ذلك أن الشعراء الذين عمدوا إلى هذا اللون من الكلام الموزون المقفى يدونون به التاريخ العربي ، لم يستطيعوا أن يثبوا في نظمهم إلى أجواء شعرية عالية، بله أن يبلغوا المستوى الملحمي الذي يلازم أحياناً الشعر التاريخي ، وظلوا في أراجيزهم عند الحدود المحزنة للنظم التعليمي وإسفافه .

لقد أخطأت شوقي في مزدوجته هذه تلك الروحُ الفنية الشعرية العالية التي يمتاز بها انتاجه الشعري ، وقد تدنّى في بعض جوانبها إلى مستوى ألفيّة ابن مالك وأمثالها[1] ، ولا ريب في أنّ إسفاف فن المزدوجات التاريخية قبل شوقي، واستعمال هذه الأراجيز في موضوعات تعليمية بعيدة كل البعد عن الروح الشعرية الحقيقية، هما السرّ في انقلاب شوقي معلماً ومؤرخاً ، وتخليه عن رسالة الشاعر الفنية ، وهنا تبرز من جديد قيمة قطعته التاريخية (موشحة صقر قريش) ، حين خلعت ثوب الرجز، ورفضت قيد الالتزام في قوافيها ، ونجت من وطأة الملل الذي كان يثقل كاهل الشاعر المنفي في برشلونة ، وحلّقت في تلك الأجواء السامية التي سبح فيها وحي الشاعر في قرطبة !

وننتهي من كل ما قدمناه إلى أن الرصيد الأندلسي والفني في هذه الأرجوزة فقير كلّ الفقر ، غير أن الأرجوزة الضخمة التي لم تُغن

---

١ ــ حافظ وشوقي لحسن كامل الصيرفي : ص ٦٨

الفكرة الأندلسية عند شوقي ، استطاعت أن تغني الفكرة العربية عنده جملةً ، ذلك أنها دليل صارخ على انصراف شوقي في فترات طويلة من أيامه في برشلونة إلى التاريخ العربي ، وسيكون لهذا الانصراف أثره الكبير في توجيه شاعريته وشخصيته ، منذ مغادرته برشلونة إلى آخر أيام حياته .

ولنا من بعدُ أن نتمنى لو أن شوقي أحسن انفاق هذه الطاقة الشعرية الضخمة ، وهو يدوّن تاريخ قومه العرب ، ولم يكن صعباً على شوقي ذي الثقافة الفرنسية الواعية أن يهتدي بآثار الشعراء الفرنسيين الذين دونوا تاريخ قومهم ، في شعر ملحمي بالغ الروعة ، من أمثال فيكتور هوغو Victor Hugo في (أسطورة العصور) La Légende des Siècles وهيريديا José Maria de Hérédia في (أكاليل الظفر) Les Trophées ، ولو فعل الشاعر المنفي ذلك لكانت ملحمة التاريخ العربي عروس أندلسياته ، إن لم تكن غرة شعر أمير الشعراء كله .

— ٦ —

يا أبناء مصر ، نحن لا نزال مقيمين على العهد ، ففي قلوبنا من الوفاء لكم ما لا يستطيع البعاد — مهما يطل — أن يغيره ، وإنا لفي شوق إلى جرعة من ماء النيل ، نبلّ بها أحشاءنا الملتهبة ، أما هذه المناهل

الكثيرة من حولنا فهي آسنة لا خير فيها ، ولكن أين ماء النيل ! إنه بعيد بعيد وإن قرّبته منا أمانينا . .

هذا منثور تلك الرسالة الشعرية التي بعث بها شوقي من برشلونة إلى أهل مصر ، ممثلين في شاعر النيل حافظ ابراهيم ، وقد تقدّمت الأبيات[1] ، وفيها نشهد انفجار عاطفة الحنين إلى الوطن عند الشاعر أوّلَ مرة منذ خروجه من مصر ، وقد مضى عليه إلى اليوم في الغربة والنفي أكثر من سنتين !

وإذا انتقلنا من رسالة شوقي هذه إلى قصيدته (أندلسية) وجدنا أننا لا نُحس بجديد ، فكأن الرسالة مقتطعة من (الأندلسية) ببحرها وقافيتها وروحها الشعرية وعاطفتها . . كان شوقي في برشلونة تشغله أمنية واحدة لا تكاد تغيب عن نفسه : متى يعود إلى مصر ؟ وكلما امتدّت الحرب وتأخرت العودة ازدادت هموم الشاعر وأحزانه لوعةً وكآبة ، وفاض به الحنين إلى وطنه ، ويبدو أنه وجد آنذاك في (نونية) ابن زيدون[2] صورة من آلامه ، فالشاعر الأندلسي

---

(١) ـ انظر ما تقدم : ص ٢٣

(٢) ـ ديوان ابن زيدون ٤ـ٨ ، والقصيدة في خمسين بيتاً من البحر البسيط عارض بها ابن زيدون (بحتري الأندلس) قصيدة مماثلة للبحتري ومطلعها

يكاد عاذلُنا في الحبّ يغرينا فما لجاجك في لوم المحبّينا

وقصيدة البحتري كانت لا تزال إلى عهد قريب مخطوطة ، وقد نشرناها وأشرنا إلى معارضة ابن زيدون لها في مجلة المجمع العلمي العربي (العدد الأول من المجلد الرابع والثلاثين ـ كانون الثاني ١٩٥٩)

كان بعيداً عن قرطبة ، مسقط رأسه وملعب صباه ، وقد خلّف فيها حبيبته الأميرة الشاعرة الظريفة ولاّدة بنت المستكفي ، وترك هناك مجده السياسي العريض وقلبه الجريح ، يعبث بهما منافسه وعدوه الوزير ابن عبدوس ، والشاعر المصري بعيد عن وطنه ، وقد خلّف فيه أحبابه وأصحابه وأمه المريضة في حلوان ، وترك مكانه الرفيع في قصر الخديوي ، يحتله خصومه الذين عرفوا كيف يجدون الطريق إلى قلب السلطان الجديد ! وليس عجيباً بعد هذا أن يجد شوقي في ابن زيدون أخاً له في المصيبة والألم ، وأن يستعير من الشاعر الأندلسي قالبه ليصب فيه أشجانه ، ويسكب أنّته ولوعته ، فإذا قال ابن زيدون [1] :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بِنتم وبِنا فما ابتلّت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
نَكاد حين تُناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكمُ أيامُنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

قال شوقي [2]

يانائح الطّلْحِ أشباهٌ عوادينا ... نشجى لواديكَ أم نأسى لوادينا
ماذا تقصّ علَينا غير أنّ يداً ... قصّت جناحَك جالت في حواشينا

---

(١) ديوان ابن زيدون ٤ – ٥ .

(٢) الشوقيات ٢/١٢٧

أمّا (نائح الطلح) الذي يناجيه شوقي هنا فهو عصفور حزين باكٍ ، التقى به خيال الشاعر عند وادي الطلح ، ذلك المتنزه المشهور على ضفاف نهر الوادي الكبير في اشبيلية ، عصفور غريب الدار ، بعيد عن أفراخه ، يُبكيه الحنين إليها ، ويرمضه الشوق إلى دياره . . هذا العصفور الحزين الملتاع إذاً رمز للشاعر المنفي المبعد عن وطنه ، تجمع بينهما المصيبة وإن فرّقهما الجنس [١]

كلٌّ رمته النوى ! رِيشَ الفراقُ لنا سهماً ، وسُلَّ عليك البينُ سكّينا

فإن يك الجنسُ ياابن الطلح فرّقنا إن المصائب يجمعن المصابينا

وشوقي يجد في (الطير) رمزاً محبباً إلى خياله ، فهو — في كثير من قصائده — يناجيه ويبثه آلامه ويودعه من سره مايخفيه

أبثك وجدي ياحمامُ وأُودعُ فإنك دون الطير للسرّ موضعُ [٢]

ياطير بُث أخاك مايجري إنّا كلانا موضع السرّ [٣]

وإذا أردنا أن نعرف كيف ذهب خيال شوقي إلى (واديالطلح) باشبيلية وهو لايزال بعدُ في برشلونة ، فليس أمامنا إلا أن نعود إلى الكتب الأندلسية التي يُطالع فيها شوقي ، لنشهد صورة وادي الطلح في (نفح الطيب) أو في (قلائد العقيان) ، ولا بد من أن يكون

---

(١) الشوقيات : ٢/١٢٧

(٢) الشوقيات ٢/١٦٠

(٣) الشوقيات ٢/١٥٩

الشاعر المنفي قد اختزن هذه الصورة في خياله ، وهو يقرأ كيف كان المعتمد بن عباد وزوجه الرميكية يختلفان إلى هذا الوادي الأخضر الجميل ، قبل أن ينفيه ابن تاشفين إلى (أغمات) ، ومن حق الملك العبادي أن ينوح في منفاه على ملكه الذاهب وواديه الجميل ، ومن حق خيال شوقي أن يرمز للملك المنفي النائح على واديه بذلك العصفور الحزين الباكي ..

ومهما يكن من شيء فإن دموع (نائح الطلح) هذا صورةٌ لبكاء الشاعر الغريب ، من كان وأنى كان ، يذرفها جفن شوقي في هدوء وكآبة ، لينتقل بعد ذلك إلى ملوك الاندلس ، يحيي رسومهم وفاءً وإجلالاً ، ويرى فيها نموذجاً للحضارة الاسلامية ، لايختلف عن نظيره في مصر ، فكأن الشاعر بانتقاله من مصر إلى الاندلس ، سرى من حرم إلى حرم ، ومن جنّة إلى أخرى[1]

رسمٌ وقفنا على رسم الوفاء له نجيشُ بالدمعِ ، والإجلالُ يثنينا
لم نسرِ من حرمٍ إلاّ إلى حرمٍ كالخمر من (بابل) سارت لـ(دارينا)[2]
لمّا نبا الخلدُ نابت عنه نسختُه تماثلَ الوردِ خيرياً ونسْرينا[3]

وليس لنا أن ننتظر من شوقي هنا تقديم صورة دقيقة عن هـذا

---

(١) الشوقيات : ١٢٨/٢

(٢) بابل ودارين مدينتان مشهورتان بجودة الخمرة

(٣) الخيري والنسرين نوعان من الزهر

(الحرم) الذي سرى إليه ، ذلك أنه لايزال في برشلونة ، وليس فيها — كما قدّمنا من قبل[١] — من آثار العرب شيء ، وهذا الرسم الذي يقول شوقي إنه وقف عليه وفاءً وإجلالاً ، لم يزره الشاعر بعدُ ، وإنما رأى صوراً له في كتب التاريخ والأدب التي حملها معه من مصر ، وقرأها في برشلونة ، ومن هنا كانت صورة ذلك الرسم غامضة فقيرة الملامح في نونية شوقي هذه ، وكان وقوف الشاعر فيها على ذلك الرسم قصيراً خاطفاً ، فهو يقفز منه قفزة عاجلة إلى مصر ، ليقف عندها إلى آخر القصيدة !

هذه هي مصر الحبيبة ، عينٌ من الخُلد ، على جوانبها رفّت تمائم الشاعر ، وفي ملاعبها مرِحت مآربه ، وفي أربُعها أنست أمانيه ، وهاهي ذي النسائم المعطرة تراوحه من برها ، فإذا هو نشوان من خمرتها ، حتى إذا أقبل الليل عليه ، راح يناجي (ساري البرق) ، ويحدثه عن أرقه وحنينه وحيرته ، ويحمّله إلى مصر رسالة قلبه المعذّب ، ويسأله أن يقف في خمائل النيل هاتفاً ، مواسياً المنازل الذاوية والمغاني الضاوية[٢]

لكن مصر وإن أغضت على مِقَةٍ   عين من الخُلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفّت تمائمُنا   وحول حافاتها قامت رواقينا[٣]

---

(١) انظر ما تقدم ص ٢٦

(٢) الشوقيات ٢/١٢٨-١٢٩

(٣) الرواقي جمع راقية وهي التي ترقي الصبيّ إذا كان به سحر

ملاعبٌ مرِحت فيها مآربُنا وأربع أنِست فيها أمانينا
بِنّا فلم نخلُ من روحٍ يُراوحنا من برّ مصرَ وريحانٍ يغادينا
ياساري البرق يرمي عن جوانحنا بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا
الليلُ يشهد لم تهتك دياجيه على نيام ولم تهتف بسالينا
والنجمُ لم يرنا إلاّ على قدمٍ قيامَ ليلِ الهوى للعَهد راعينا
كزفرةٍ في سماء الليل حائرةٍ مما نردّد فيه حين يُضوينا
بالله إن جُبت ظلماء العُباب على نجائب النور محدّواً بجبرينا
فقف إلى النيل واهتف في خمائله وانزل كما نزل الطلّ الرياحينا
وآسِ ماباتَ يذوى من منازلنا بالحادثات ويضوى من مغانينا

وبعد هذه النجوى الفيّاضة عاطفة وحناناً ، يعود شوقي إلى تلك النسائم المعطرة التي وصلت معّ السحر من وادي النيل ، ليملأ رئتيه من ذكي ريّاها، وليسألها من بعدُ — كما سأل ساري البرق — أن تحمل في عودتها أشواقه [1] :

إلى الذين وجدنا ود غيرهمُ دُنيا وودّهمُ الصافي هو الدينا

ومنذ أن بدأ شوقي مناجاته للبرق الساري والنسائم المعطرة،راح يسير في ظلال (ابن زيدون) ، يعارضه ويترسم خطاه ، ويستعير منه القالب الفني ليسكب فيه أشواقه وحنينه إلى مصر ، كما سكب ابن

---

(١) الشوقيات : ٢/١٣٠

زيدون فيه أشواقه وحنينه إلى ولادة [١]

ياساري البرق غادِ القصرَ فاسق به   من كان صِرْفَ الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عنّى تذكرنا   إلفاً تذكّره أمسى يعنّينا
ويانسيم الصَّبا بلغ تحيتنا   من لو على القرب حيّا كان يحيينا

وعندما يناجي شوقي أحبابه أصفياء الود في مصر ، يلازم خطا ابن زيدون ، فتأتي أبياته كبيرة الشبه بأبيات الشاعر الأندلسي [٢] ، ثم يتذكر شوقي عهود الشباب الوارفة الظلال في مصر ، ليرسم بأسلوب ابن زيدون التصويري مشاهد النيل ، وما يفيض على جنبات الوادي من خيرات ، ثم ينتقل بعدها إلى الفخر بقوافل المجد التي تتابعت على ضفتي النيل ، إلى أن يقف عند الأهرام قليلاً ، يمجدها ، ويمجد بناتها ويرسم لها صوراً متتابعة ، يُزجي فيها الألفاظ الفخمة ، في صياغة صافية السبك ، وإيقاع صوتي متموج زاخر بالجمال [٣] :

كأنَّ أهرام مصرٍ حائطٌ نهضت   به يد الدهر لا بنيانُ فانينا
إيوانه الفخم من عُليا مقاصره   يفني الملوك ولا يبقي الأواوينا [٤]
كأنها ورمالاً حولها التطمت   سفينة غرقت إلا أساطينا [٥]

---

(١) ديوان ابن زيدون : ص ٦
(٢) انظر (شوقي أو صداقة أربعين عاماً) لشكيب أرسلان : ٣٣٥
(٣) الشوقيات ٢/١٣٢
(٤) الأواوين : جمع إيوان.
(٥) الأساطين : جمع أسطوانة وهي السارية

كأنها تحت لألاء الضحى ذهباً كنوزُ (فرعون) غطّين الموازينا

وفي البيت الثالث صورة رائعة التمثيل حقاً ، تستمد خطوطها الكبرى من الواقع ، ويلوّنها خيالٌ واسع عريض ، وكم كنا نتمنى أن يستوحي شوقي - في مطالع القصيدة - وادي الطلح ذاته ، لا أوصافه من الكتب ، وأن يعطينا عنه مثل هذه الصورة الحية للأهرام ، ولكن كيف يستطيع شوقي ذلك وهو لايزال في برشلونة !

وعندما يصل شوقي إلى الأبيات الأخيرة من القصيدة ، يصحو من فخره بأمجاد مصر ، فيرى ظلمة الليالي تغمره بمصائبها ، والدهر يعينها في قسوتها على الشاعر الغريب (١) :

فآب من كُرة الأيام لاعبُنا وثاب من سِنة الأحلام لاهينا
ولم ندع لليّالي صافياً فدعت (بأن نغصّ فقال الدهر : آمينا) (٢)

وهكذا يلتقي شوقي في الشطر الأخير بابن زيدون ، وجهاً لوجه ، في شكوى ملتاعة من ظلم الدهر ، يطلقها الشاعر الأندلسي من قلب جريح ، فيستعيرها شوقي منه ، دون أن يغيّر فيها شيئاً ، ذلك لأنها تعبر عن دفقة فائرة لألم عميق واحد ، يحسّه كلٌ من الشاعرين إحساساً مطابقاً ..

---

(١) الشوقيات ٢/١٣٢

(٢) يقول ابن زيدون (ديوانه ص ٤)

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نَغَصّ فقال الدهر آمينا

وفي نهاية القصيدة يبدو لعيني شوقي طيف أمه المريضة في مصر ، فإذا حنينه إليها يثور في نفسه ، فيحرّك أشجانها ، وإذا الشاعر المنفي يقاسي آلام البعد عن (أُمّين) ، أُولاهما مصر والأخرى تلك التي خلّفها في حلوان ، كنزاً ثميناً ، ووديعةً بين يدى الله (١)

كنزٌ بحلوان عند الله نطلبه خيرَ الودائع مِن خير المؤدينا
إذا حملنا لمصرِ أو له شجناً لم ندرِ أى هوى الأُمين شاجينا

وما أصدق هذه العاطفة الملتاعة ، وما أجمل هذا الرمز العميق الدلالة في الربط بين هاتين الأُمين في لفظة واحدة !..

وهكذا تنتهي القصيدة لنواجه السؤال الذي يثيره موضوعنا دائماً: ما حظّ الأندلس من القصيدة وما طبيعة (الفكرة الأندلسية) فيها؟

يجيبنا المستشرق هنري بيريس عن هذا السؤال بقوله : «إن اهتمام شوقي بالأندلس في هذه القصيدة أقل من اهتمامه بوادي النيل ، وهو يفكر في اسبانيا أقلّ مما يفكرّ في مصر، ولقدصور شوقي لنا بطريقة (رومانتيكية) متميّزة حالةً من حالات نفس شاعرٍ ملتاع حزين ، يُحس أنه موزّع القلب بين حبين : حبّ للأندلس ، حديث العهد ، وهو لحداثته ضحلٌ غير عميق ، وحب ثانٍ لمصر ، وهو لقدم عهده يلمس أشد أوتار قلبه عاطفةً وإحساساً (٢)»

---

(١) الشوقيات : ٢ / ١٣٢

(٢) انظر اسبانيا كما رآها السياح المسلمون ص ١٠٥

لا نزال إذاً ننتظر خروج شوقي من برشلونة لنشهد ازدياد رصيده الأندلسي ثروةً وغنى ، وستظل الفكرة الأندلسية عنده هزيلة ما لم تغذها الأرض الاندلسية مباشرة ، بما تعرضه لعيني الشاعر من آثار المجد العربي الباقية عليها .

— ٧ —

ولكن شوقي لن يغادر برشلونة قبل أن يتلقى من مصر ذلك النبأ الأسود الحزين ، فقد طوى الشرقَ نحو الغرب نعيُ أمه ، ليصيب بسهمه سويداء فؤاده ، فإذا هو خائر العزيمة ، ذاهل العقل ، يجأر بشكواه إلى الله [(١)]

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى
طوى الشرق نحو الغرب والماءَ للثرى إليَّ ولم يركب بساطاً ولا يمّا

وهو يبدي عجبه من سرعة وصول النعي إليه، ودهشته من أحداث الليالي وبُعد مرمى سهامها ، في جو من الحكمة قاتم كئيب ، يستعير فيها من روح المتنبي وحكمه ، ولكنه لا يُساويه [(٢)]

ولم أر كالأحداث سهماً إذا جرت ولا كالليالي رامياً يُبعد المرمى
ولم أر حكماً كالمقادير نافذاً ولا كلقاء الموت من بينها حتْما

---

(١) الشوقيات ٣/١٥٦
(٢) الشوقيات ٣/١٥٦—١٥٧

إلى حيث آباء الفتى يذهب الفتى   سبيلٌ يدين العالَمون بها قدما

وهكذا يسير شوقي هذه المرة في ظلال المتنبي، فيعارض ميميّته في رثاء جدته [١]

ألا لا أُري الأحداث حمداً ولا ذمّا   فما بطشُها جهلاً ولا كفُّها حلما
إلى مثل ما كان الفتى مرجعُ الفتى   يعودُ كما أُبدي ويُكري كما أرمى [٢]

ولعلّ شوقي أحس حين وصل إليه نعي أمه بالشبه الكبير بين حاله وحال أبي الطيب، فكلاهما شاعر بعيد عن وطنه ومسقط رأسه، وقد خلّف أحدهما في الكوفة جدة عجوزاً يئست من حفيدها لطول غيبته، وخلّف الثاني في مصر أماً مريضة تعيش على أمل انتهاء الحرب الكونية ليعود إليها ولدها، فلما همّ المتنبي بالعودة كان فرح جدته أكبر من أن تحتمله أعصابها الخوّارة، فحُمّت وماتت، ولمّا أُعلنت الهدنة، وبلغ نبأ إعلانها أمّ شوقي، طغى عليها الفرح بعودة ولدها القريبة، ولم تقو على احتمال فرحتها الكبرى، فحُمّت وماتت! وهكذا التقى شوقي هنا بأخ جديد في الرزء والألم، جمعت بينهما المصائب المتشابهة، وليس عجيباً أن يستعير منه القالب ويغير على كثير من معانيه..

يقول أبو الطيب يلخص تجربته في مصائب الدهر وأحزانه [٣]

---

(١) ديوان المتنبي : ٤/١٠٢
(٢) ويكري كما أرمى   وينقص كما زاد
(٣) ديوان المتنبي : ٤/١٠٤

عرفتُ الليالي قبل ما صنعت بنا ... فلمّا دهتني لم تزدني بها علما

ويلتقط شوقي هذه التجربة فيقلّبها ويحاول سبكها من جديد[١]:

زجرتُ تصاريف الزمان فما يقع ... ليَ اليوم منها كان بالأمس لي وهما

وقدّرتُ للنعمان يوماً وضدّه ... فما اغترت البؤسى ولا غرت النعمى

وإذا كانت تجربة المتنبي في عراك الدهر أتاحت له مثل هذا القول، فإن شوقي لا يملك من التجارب الجزئية ـ فيما نعلم ـ ما يُبيح له أن (يقلد) هنا المتنبي، أو يدفعه إلى أن يتحدى الزمان وويلاته فيقول[١]:

فأترِعْ وناول يا زمانُ فإنّما ... نديمك (سقراط) الذي ابتدع السمّا

قتلتكَ حتى ما أُبالي أدرت لي ... بكأسك نجماً أم أدرت بها رَجْما

كما يقول أبو الطيب تماماً[٢]

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي ... ويا نفس زيدي في كرائهها قُدما

غير أن شوقي كان مأخوذاً في رثائه لأمه بسحر المتنبي ونفوذه، يسير على آثاره في استسلام عجيب، ويستعير القالب والمعنى واللفظ، ولا يحاول تجديداً ولا ابتكاراً، وبخاصة عندما يرى في تجربة المتنبي صورة لتجربته، فاذا خاطب المتنبي جدته في لوعة ولهفة[٣]

لكِ اللهُ من مفجوعة بحبيبها ... قتيلة شوقٍ غيرِ مُلحقها وصْما

---

(١) الشوقيات : ٣/١٥٧

(٢) ديوان المتنبي ٤/١٠٩

(٣) المصدر السابق ٤/١٠٢

خاطب شوقي أمه أيضاً ، مردداً صرخة المتنبي [١]

لك اللهُ من مطعونة بقنا النوى شهيدة حربٍ لم تُقارف لها إثما

وهكذا نسير في قصيدة شوقي لنجد ألفاظ أبي الطيب منثورة في ثناياها ، تكاد تنظر إلى معانيه أيضاً ، وتستمد من قوة أفكاره ، فهذه الحمى التي أودت بأم شوقي أكانت تتمناها وتهوى لقاءها منذ طويل ! ذلك أنها حين أقبلت عليها لم تجد منها إعراضاً ولا ذماً ، ما دامت قد تحامت وحيدها وثمراته ، ويا حسرة قلب الشاعر المنفي إذ لم يُقدّر لأمه أن ترى صغاره أهلّةً نيرة، وقد أصبحوا ريحانة الصديق وغصّة العدو ، ويا حسرته أيضاً حين لم يُقدر لأبنائه أن يطوفوا حول نعش جدتهم ليشبعوه استلاماً ولثماً

لقد مضت أم شوقي شهيدة الحرب ، حرب ضارية لم يكن للشاعر في إشعال نيرانها يد أو هوى ، وهذا شيء نعرفه ونؤمن به ، فما حاجة شوقي إلى توكيده بالأيمان الكثيرة المتتالية [٢]

حلفتُ بما أسلفتِ في المهد من يدٍ وأوليت جثماني من المنّة العظمى

وقبرٍ منوطٍ بالجلال مقلدٍ تليدَ الخلال الكُثر والطارف الجما

وبالغاديات الساقيات نزيله من الصلوات الخمس والآي والأسما

لما كان لي في الحرب رأي ولا هوى ولا رُمت هذا الثكل للناس واليتما

ولم يك ظلم الطير بالرقّ لي رضاً فكيف رضائي أن يرى البشر الظلما

(١) الشوقيات : ٣/١٥٧

(٢) المصدر السابق : ٣ / ١٥٨

وهل كان شوقي متهماً بإثارة الحرب لكي يهتم بالتنصل من تبعتها! وإذا كان شوقي يصطنع هذه الطريقة ليحدثنا عن رقة قلبه ونشدانه الخير والسلام والعدل والانصاف للبشر جميعاً، قلنا إن حرص الشاعر الشديد على التهويل والتفخيم لا محل له في الرثاء الصادق المؤثر، إلا إذا كان يريد أن يخفي بهذا القناع وغيره فقر العاطفة وشحَّها، أو أن يتخذ من ذلك وسيلة للهرب من ألم التفكير في الموت ومجابهة المصاب الفاجع وجهاً لوجه !..

ويصل شوقي بعد ذلك إلى الحديث عن الأندلس ليرسم لنا صورة من (نفسيته) وهو نزيل « رُبا الدنيا وجنات عدنها » طوال سنوات نفيه، لقد كان يمضي الأيام حزيناً، لا يجد لأنهار الأندلس طعماً، وإذا وجد ريح أريج المسك في ربوعها فهو لا يجد ريحاً للسيادة العربية، لتلك الأيام التي كان العرب فيها من قبائل مروان ولخم يحكمون الاندلس، وإذا ضحكت للشاعر سماءُ الأندلس سحت دموعه بكاءً على ما اندثر في ترابها من ندى وبأس وحزم[1]:

نزلت ربا الدنيا وجنات عدنها ... فما وجدت نفسي لأنهارها طعما
أريج أريج المسك في عرصاتها ... وإن لم أرح «مروان» فيها ولا «لخما»
إذا ضحكت زهواً إليَّ سماؤها ... بكيت الندى في الأرض والبأس والحزما

وهذه كلها استجابات مباشرة سريعة، فقيرة الحساسية، لا تتعمق

(١) الشوقيات : ١٥٨/٣

نفس شوقي ولا تتغلغل إلى أغوار حسه ولهذا نجده ينتقل انتقالاً سريعاً مفاجئاً من الرسوم الأندلسية التي يُطيف بها — في خياله طبعاً، فهو لا يزال في برشلونة — إلى مصر وأمه ، ليعلن لنا أن ذكراهما لم تبرح خاطره ساعة وهو في منفاه ، وأن بكاءه شوقاً إليهما لا ينقطع كلما جنه الظلام .. وكم كنا نتمنى لو أن شوقي استعاض عن لهجته التقريرية هنا ، و (تصريحاته) التي يعلن فيها حنينه وبكاءه ، بأن يسمعنا خفقة من قلبه الملتاع ، وأن يرينا دمعة من عينه الباكية ، لنشاركه بقلوبنا نحن حرقة شوقه ولذعة فجيعته. ولكن الشاعر يؤثر الانتقال السريع إلى تصوير إعلان الهدنة، وإلى وصف إقبال صبح المنى على الناس بعد ليل الحرب الطويل، ليرسم لأعيننا كيف انهارت آماله بالعودة إلى أمه بضربة من ضربات الدهر(١)

فلما بدا للناس صبحٌ من المنى وأبصر فيه ذو البصيرة والأعمى
وقرت سيوف الهند وارتكز القنا وأقلعت البلوى وأقشعت الغُمى
أتى الدهر من دون الهناء ولم يزل ولوعاً ببنيان الرجاء إذا تما

وكأن شوقي أحس بضعف مادة الرثاء وفقرها ، على الرغم مما حشده من لفظ فخم وسبكٍ قوي وموسيقى كئيبة ، فحاول أن يغطي النقص باصطناع الفخر على طريقة المتنبي أيضاً ، ولننظر كيف يغالي لنا بنفسه وبشاعريته ، وهو يخاطب أمه في نهاية المرثية(١) :

---

(١) المصدر السابق : ٣/١٥٩

لـئن فات ما أملته من مواكـبٍ
فدونكِ هذا الحشدَ والموكب الضخما
رثيتُ بـــه ذات التقى ونظمتــه
لعنصره الأزكى وجوهره الأسمى
نمتك منـاجيبُ العـلى ونميتهـا
فـــلم تُلحقي بنتـاً ولم تُسبقي أمّـا
أتيت بـــه لم ينظم الشعرَ مثلُه
وجئت لأخلاق الكرام به نظمـا
ولو نهضت عنـــه السماء ومخّضت
به الأرض كان المزنَ والتبر والكرما

وهكذا يقول شوقي بلسان الفخر إنه لا نظير له في الشعر والأخلاق، فهو كريم كالغيث، نفيس صافي العرق كالذهب، ولشعره عند سامعيه لذة الخمرة وسكرها .. ويا ليت شوقي ضمّن أيضاً هذه الأبيات قول أبي الطيب[1]

ولو لم تكوني بنت أكرم والدٍ   لكان أباك الضخم كونُك لي أمّا

لتتم ألوان الصورة في القصيدة التي غدت مزيجاً من الرثاء والحكمة والفخر المسرف ..

وبعدُ فلم سلك شوقي هذا المسلك؟ وما هي طبيعة آلامه في مثل

(١) ديوان المتنبي ٤/١٠٧

هذه التجربة العنيفة التي اجتمع له فيها النفي والغربة والمصيبة بفقد الأم؟

لا بد هنا من العودة إلى مريضة حلوان لنسأل عن سر رغبتها في البقاء في مصر ، والتخلف عن مصاحبة وحيدها وأحفادها في أشق مراحل حياتهم وأصعبها .. إنها لتعلم حقاً أن ابنها محتاج في منفاه إلى قلبها الكبير وصدرها الرءوم وروحها المواسية ، ومع ذلك كله آثرت البقاء في مصر بعيداً عنه ، وأسلمته هو وصغاره إلى المنفى ، تعصر هموم الحياة قلبه ، ولم تُبد رغبة في مقاسمته الضراء والمحنة ، وكنا نقدّر أنها تكون شديدة الحرص على أن تكون إلى جانب وحيدها وأولاده في محنتهم ، وأن تكون المانعةُ عند ذلك من جانب شوقي ، فيقنعها بالبقاء ،متعللاً بمرضها وبعودته السريعة إليها بعد الغياب القصير

لا نريد أن نظلم أم الشاعر بإثارة هذا البحث الشائك ، ولكن ما حيلتنا في ذلك ما دمنا نرى أن آلام شوقي في رثائه لأمه آلام خفيفة رقيقة، أحسّ الشاعر نفسه بضآلتها وهزالها ، فحاول أن يستر فقره العاطفي وراء حكمة هزيلة وفخر مسرف، صبهما في مرثاته بلفظ متأنق وصياغة بطيئة متمهّلة ، وخضوعٍ كبير لشخصية أبي الطيب المتنبي !

أما (الفكرة الأندلسية) فليس لها في القصيدة غير أربعة أبيات، صورت لنا الأندلس رياضاً وجنّات ،يضوع أريج مسكها،وتضحك سماؤها المشرقة،وتشير أرضها إلى ماضيها العربي الزاهر ،فوراء كل رسمٍ

قصر ، وعلى كل دمنة غرفة شماء [١] :

أطيف برسمٍ أو ألمّ بدمنةٍ أخالُ القصور الزهر والغُرف الشمّا

ونحن لا نجد في هذه الرياض والجنّات غير الغموض الذي تعودناه من شوقي إلى الآن ، كلما تحدّث عن الأندلس ، ذلك أنه لم يطف حقاً بالرسوم العربية ليستوحيها ، فتأتي الصورة واضحة المعالم ، وكيف يُطيف بها ، بغير خياله ، وهو لم يضع قدماً له بعدُ في أرض الأندلس !

— ٨ —

أما السينية فتقص علينا قصة رحلة الشاعر إلى الأندلس ، وطوافه بالمدن الكبيرة فيه ؛ إنها إذاً أثرٌ أندلسي محضٌ ، يستوحي شوقي فيه الأرض الأندلسية ويصدر مباشرة عن آثار العرب الخالدة الباقية عليها إلى اليوم .

وللسينية مقدمة نثرية ، تحدث فيها شوقي عن خواطره وأحاسيسه عندما نظم هذه القصيدة ، وكشف عن سرّ استعارة قالبه من البحتري هذه المرة ، وتأثره خطا الشاعر العباسي الكبير في سينيته الخالدة ، في وصف إيوان كسرى ، فالبحتري دون ريب « أبلغُ من حلّى الأثر ، وحيّا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العِبر ، ومن قام في مأتمٍ على

---

(١) الشوقيات : ٣/١٥٨

الدول الكُبر ، والملوك البهاليل الغُرر [١] » ، وشوقي يطوف الآن بالآثار العربية في الأندلس ، وهي آثار فخمة رائعة، بقيت بعد زوال أصحابها تتحدى القرون وتطاول البقاء، وتشهد لبُناتها بالمجد والعظمة، ويقف الزائر اليوم أمام روعتها وجلالها مبهوراً خاشعاً ، مأخوذاً بدقة الصنعة وسحر النقوش وجمال الفن ، فإذا أراد شوقي إذاً أن ينسج صور هذه الآثار على منوال (كلاسيكي) ، فلن يجد خيراً من القصيدة التي خلدت آثار الفرس في المدائن .. وهكذا كان طيف البحتري يلاحق شوقي وهو يتنقل في قرطبة وغرناطة ، وكأنه يُهيب به أن يخلد قصور الأمويين وبني الأحمر ، ويدعوه إلى أن يستعير منه لحنه السينيّ الهامس [٢]

صُنت نفسي عمّا يُدنّس نفسي ... وترفّعتُ عن جَدا كل جِبسِ
حضرت رحليَ الهمومُ فوجّهـ ... ـتُ إلى أبيض المدائن عنسي
أتسلى عن الحظوظ وآسى ... لمحلٍ من آلِ ساسانَ دَرْسِ
ذكرتنيهم الخطوب التوالي ... ولقد تُذكر الخطوب وتُنسي

القصيدة ...

ويقول شوقي : « فكنتُ كلما وقفت بحجر ، أو أطفت بأثر ، تمثلتُ بأبياتها ثم جعلت أروض القول على هذا الروي ، وأعالجه

---

١ — الشوقيات : ٢/٥٢-٥٣

٢ — ديوان البحتري ١/١٠٨

على هذا الوزن حتى نظمت هذه[١] » القصيدة :

اختلاف النهار والليل يُنسي اذكرا لي الصبا وأيام أُنسي

والمقدمة النثرية تثير أيضاً بعض الأفكار المهمة ، ولكنها لاتنيرها إنارة كافية ، فشوقي يزعم أن الحرب أعاقته عن الرحلة إلى الأندلس ، وألزمته بالبقاء في برشلونة ، ولكنه لايبين لنا طبيعة تلك العوائق !.. وهو يتحدث عن المدن الأندلسية التي طاف بها فيذكر طليطلة، ولكنه ينساها كل النسيان في القصيدة ، حتى نعلم من ابنه حسين أن أباه لم يزرها[٢] ، وهو أخيراً يشير إلى البيت البديع الفرد من سينية البحتري فيذكر أنهم اتفقوا على أنه هو قوله :

والمنايا مواثلٌ وأنوشر وانُ يزجي الجيوش تحت الدّرفس

أما من هم أولئك الذين اتفقوا ، وبأي مقياس نقدي حكموا ، فإن شوقي لايُعنى بإيضاح شيء من ذلك ، وكل همه منصرف إلى التأنق في صياغة جمله ، وتزيينها بألوان من البديع ، « فاشبيلية تُشبل[٣] على قصرها الخالي ، وطليطلة تُطل على جسرها البالي[٤] ... » ، وليس عجيباً بعد هذا أن تغطي هذه الأصباغ وجه (الفكرة الأندلسية)

---

١ — الشوقيات : ٢/٥٣-٥٤

٢ — انظر ماتقدم : ص ٣١-٣٣

٣ — تشبل عليه : تعطف عليه ، كما تعطف الأم على أولادها

٤ — الشوقيات : ٢/٥٢

في المقدمة النثرية ، فلا يبين لنا منها غير صور غامضة ، لاتزيد رصيد شوقي عن الأندلس غنىً ، ومن الخير أن ننتقل منها إلى القصيدة . .

من مطلع سينية شوقي تبدو لنا صورة البحتري ، ذلك أن الشاعر المنفي يستعير في مطلعه ألفاظ الشاعر العباسي ومعناه ، ولكنه يقع دونه ، فالبحتري تذكّره الخطوب وتُنسيه ، وشوقي يُنسيه اختلاف النهار والليل ولا يذكّره! لماذا ؟ لا لشيء إلاّ لأنِ الوزن — فيما يبدو — لم يساعده على توفية الفكرة حقها ! ثم ماهذا الذي أُنسيه شوقي بمرور الزمان ؟ إنه صباه وذكريات أنسه وشبابه ! ولكن كيف تُنسى هذه الأشياء ، وعهدنا بما ينطبع في النفس ألاّ يُنسى بسهولة ، على الرغم من توالي الخطوب !

غير أن شوقي أراد هذا التمهيد ليقوده إلى الحديث عن مصر ، فها هو ذا يسأل صاحبيه — على الطريقة التقليدية في أدبنا — أن يسألا مصر

هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمانُ المؤسي [1]

وكأنه يدرك إثر ذلك أن من الأولى أن يوجَّه هذا السؤال إليه، لا إلى مصر ، فإذا هو يتولى الإجابة بنفسه ، فيعلن أن حبه لمصر أعز من أن تنال منه الليالي ، وأن جرحه في هوى مصر لن يلتئم . ومن حسن حظ الأدب أن الشاعر لايكتفي بـ (التصريحات) هذه المرة ،

١ — الشوقيات ٢/٥٤

وأنه يقدّم لنا هنا ما كنا نلتمسه في آثار برشلونة فلا نجده، ذلك أن شوقي يعود بنا إلى تلك الرابية المشرفة على ميناء برشلونة الكبير، حيث اتخذ من بعض منازلها سكناً له، لنراقب معه تلك البواخر الغادية الرائحة، ونستمع إلى رنينها الذي لا يكاد ينقطع، وهناك نسمع بحق وجيب قلب معذب، ونشهد دمع إنسان غريب برح به الألم، منفي أبعده الظلم عن وطن يحبه، فهو دائم الحنين إليه، مشرئب العنق إلى ناحيته، خلف البحر، لا تزايل عينيه أطياف مدنه ونيله ونخيله، حتى إذا أقبل الليل عليه لم يغمض له جفن، فكلما رنّت باخرة معلنة مغادرتها الميناء استطير قلبه، وقفزت دموعه، وتمنى لو يكون بين ركابها، في طريقه إلى الوطن، إلى الدوح المحرم عليه، وهو بلبله الغرّيد، والمذلَّل الموطّأ لغيره، من غريب الطير من كل جنس[1]!

مستطارٌ إذا البواخر رنّت أولَ الليل أو عوت بعد جَرْس[2]
راهبٌ في الضلوع للسفن فطْنٌ كلما ثُرن شاعَهُن بنَقْسِ[3]
يا ابنة اليمّ ما أبوك بخيل ما لَه مولعاً بمنعٍ وحبس
أحرامٌ على بلابله الدو حُ حلالٌ للطير من كل جنس

ولقد يبدو لنا تشبيه شوقي قلبه بالراهب جميلاً موفقاً، فقلبه في وحدته في منفاه، وانقطاعه لعبادة الوطن، أشبه شيء بالراهب المنقطع

١ — الشوقيات: ٢/٥٤
٢ — الجرس هنا الطائفة من الليل، لا الصوت كما يفسره شارح الديوان،
٣ — النقس: ضرب النواقيس.

للعبادة في صومعته ، غير أن شوقي لم يُرد إلى ذلك كله ، وكل ما أراد إليه أن القلب راهب لأنه يخفق ويدق ، كما يدق الراهب النواقيس !! وعجيبٌ من شوقي أن يغيب عنه أن قرع النواقيس ليس من عمل الرهبان ، وأن هناك خدماً بخصوص غالباً لذلك ، ولكن الصورة — وإن تهافتت — ترسم لأعيننا شيئاً مما كان الشاعر المنفي يألفه في برشلونة ، فرنين أجراس الكنائس في بلد كاثوليكي ظاهرة مألوفة ومعهودة دون ريب !

وما أجمل هذه المناجاة التي يبثها الشاعر المنفي لإحدى هذه البواخر ، والتي يحسن فيها الاستعطاف والرجاء ويملؤها بحيوية الجرس : يا ابنة اليم ! إن أباك رمز للسماحة والجود فماله اليوم مولعاً بحبس هذا الشاعر المحزون ، لا ييسر له مركباً يحمله إلى وطنه النائي ! . . يا ابنة اليم كيف يُحرم الدوح على بلبله الصداح ، ويحلل للطير من كل جنس ! فكل وطن :

كل دارٍ أحق بالأهل إلا في خبيث من المذاهب رِجسِ [1]

وهكذا يرتفع صوت شوقي بشكواه الثائرة ، وتغلي في دمائه غضبة المتألم ، ويُنطق الألم جوارحه ، فيصور نقمة المصريين وهم « يودعون كل يوم فريقاً من أبنائهم الأحرار ، ليستقبلوا على الرغم منهم ما يُلقي إليهم البحر من نفايات الأمم وأوشاب الأقطار [2] »

---

١ — الشوقيات : ٢/٥٥

٢ — الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك : ١٤٦

ومثل هذه الصرخات الشاكية من شوقي بدأت تخرج من قلب جريح حقاً ، فلا عجب إذا وجدت سبيلها إلى القلوب ، فهزتها وأثارتها ؛ ولشوقي من قبل مثل هذه الشكاوى، ولكنها كانت لا تتجاوز لسانه إلى قلبه ، كقوله في مؤتمر المستشرقين ، من قصيدة « كبار الحوادث في وادي النيل »

ففريقٌ ممتَّعون بمصرٍ وفريقٌ في أرضهم غرباء [1]

فهذا كلام يابس ، ليس فيه عصير قلب متألم شاكٍ ، ومن هنا لا نراه قادراً على إثارة وجداننا ، على الرغم من أن الشاعر يضع فيه معنى ما يقوله اليوم ...

وليت شوقي يسترسل ، فيحدثنا عن هذا المذهب الآثم ، عن الاستعمار الوقح الذي يُخرج المصري من دياره ، ويملؤها بالغرباء الدخلاء ، ليمتصوا دماءها ويستغلوا خيراتها .. ولكن شوقي يؤثر كبح جماح شكواه ، ليعود ثانيةً إلى مناجاته الهادئة لابنة اليم [2]

نَفَسي مرجلٌ وقلبي شِراع بهما في الدموع سيري وأرسي

سيري إذاً يا ابنة اليم ، مرجلك أنفاسي المحترقة ، وشراعك قلبي الخفّاق وبحرك دمعي الجاري الفياض، واجعلي وجهك ثغر الاسكندرية،

---

١ — الشوقيات : ١/٤

٢ — المصدر السابق : ٢/٥٥

فهناك وطن الشاعر الغريب الذي لا يعدل به شيئاً، ولو كان جنة الخلد[1]:

وطني لو شُغلت بالخلد عنه　　نازعتني إليه في الخلد نفسي

شهد اللهُ لم يغب عن جفوني　　شخصُه ساعةً ولم يخلُ حسّي

وهنا أفرغ شوقي (شحنة) عاطفية ضخمة من حب الوطن والشوق إليه تجاوز فيها الشاعر ما عُرف عنه من توقير للدين[2]، ولكنها كانت طفرة وجدانية لم يمهّد شوقي نفوسنا لها، وليته قدم البيت الثاني فجعله تمهيداً لطفرته الرائعة، وليته لم يُشهد الله لقارئه على حنينه، فالحنين إلى الوطن فضيلة وجدانية لا تستمد مقوماتها من تقدير الناس وتصديقهم، بل من إيماننا بها واعتقادنا أنها من أسس الحياة الأخلاقية، اعتقاداً ذاتياً، لا قيمة معه لرضاء الناس أو غضبهم، تصديقهم أو تكذيبهم!

ثم يسير شوقي في القصيدة، وقد ملأت مصر صفحة نفسه، واحتلت المسرح كله، وفازت بثلاثين بيتاً، تتوالى فيها المشاهد متسلسلة متتابعة، وكلّها تمثل الأماكن التي يهفو إليها قلب الشاعر من مصر، تبدأ بضاحية من ضواحي مصر الجديدة حيث «السواد من عين شمس» أو «المطرية»، ثم تمر بالجزيرة «عروس النيل»، لتستقبل بعدها النيل «ابن ماء السماء» بموكبه الفخم «الذي يحسر العيون ويُخسي» وهو يبدو بجماله مثل وادي العقيق في يثرب، أيام عمران المدينة المنورة بالقصور الباذخة والجنان الغناء.

---

١ — الشوقيات: ٢/٥٥

٢ — (وطنية شوقي) لأحمد محمد الحوفي: ٩٢

ثم تقبل « الجيزة » بموكبها الحزين ، ذلك أنها لم تخلع بعدُ حدادها على رمسيس ، ولم تُفق من مناحتها عليه ، فسواقيها لا تزال كثيرة الضجيج ، وقصبها لا يزال كثير الهمس والتساؤل عنه ، والنخيل فيها يقمن مضفورات الشعر ، عاطلات من الحلي ، متجردات من الأطواق..

ثم تلوح لنا الأهرام كأنها ملاعب جن في روعة الضحى ، وتنزاح ليظهر خلفها رهين الرمال أبو الهول بأنفه الأفطس ، يجثم فوق الرمال منذ بعيد الزمن ، منذ أن كان الدهر يلعب في ثراه صبياً ، ومنذ أن كانت الليالي تمرّ به كواعب ناهدات غيرَ عُنُس ! وهو كما هو ، لا يزال في جثومه ذاك ، يراقب الأجيال بعينين ركّبتهما المقادير في محاجره ، لينقد حوادث الدهر ، ويستعد للانقضاض بمخلبين سلّحته بهما المقادير لافتراس الطغاة ، فانهارت لذلك عند أقدامه أطماع الفرس والروم ونابوليون في مصر !

لا ريب في أن ريشة شوقي كانت مبدعة في رسم هذه المشاهد وإحكام عرضها الفني وتناسقها ، ولكننا نأخذ على شوقي أن صوره الفنية هذه من نتاج العين لا من نتاج القلب ، ولقد أفلح الشاعر حقاً في إشراك الطبيعة في الحزن على رمسيس والنواح عليه ، في صور فنية متتابعة ، فيها حياة وإبداع ، ولكن شوقي أخطأ في حجب عاطفته هو.. وكأنه يُحس بانحباس عاطفته في نفسه هذه الفترة الطويلة ، فيطلقها دفعة واحدة ، في الأبيات التالية ، فإذا هي مقطوعة حزينة ، وفق شوقي

في التمهيد بها لرثاء الممالك الاسلامية [١]

يا فؤادي لكل أمرٍ قرار فيه يبدو وينجلي بعد لُبس

وهذه الزفرة المتألمة التي خالطت نداء الشاعر لفؤاده ، سنظل نحن في جوها الكئيب ، نصغي إلى حديث الشاعر عن ويلات الممالك ونكبات الشعوب ، وهو حديث حزين ، ملائم أيضاً لرسم الإطار الأسود لصورة الآثار العربية في الأندلس ، ولا نكاد ننتهي من هذا الحديث حتى نجدنا أمام قرطبة ، ونسمع شوقي وهو يسأل عن بني مروان فيها [٢]

أين مروان في المشارق عرش أموي وفي المغارب كرسي

وتجيبه الأطلالُ الباقية بأن الدهر قد عفّى عليهم ، فقد سقمت شمسهم ثم غابت عن رباعهم.. ويبدو طيف البحتري لعيني شوقي وهو يردد ما لقي من عبرة الأيام في أطلال الفرس [٣]

عُمّرت للسرور دهراً فصارت للتعزّي رباعهم والتأسي

فيردد شوقي عند كل أثر يطيف به من آثار الأمويين [٢]

وعظ البحتري إيوانُ كسرى وشفتني القصور من عبد شمس

ويعتقد المستشرق هنري بيريس أن قول شوقي : (وشفتني القصورُ

---

١ – الشوقيات : ٥٦/٢

٢ – المصدر السابق: ٥٧/٢

٣ – ديوان البحتري : ١١٠/١ والشوقيات : ٥٣/٢–٥٤

من عبد شمس) يشف عن تبلور الفكرة الأندلسية عنده ، وهو ينطاق من أعماق روح الشاعر المنفي ، حيث ترسبت الصور التي أمدته بها مطالعاته الكثيرة لتاريخ العرب في الأندلس[1] ، ولكننا نظل مع ذلك في حيرة من غموض هذا التأثير الذي كثفه شوقي في لفظه (شفتني) ، فهل مراده منها مرادفة الوعظ ؟ وما هي العظة التي بلغت من شوقي غايتها وهو يطوف بقصور الأمويين ؟ أهي عبرة الدهر في زوال السيادة العربية عن الأندلس أم هي في عظمة الأمة التي شادت تلك الآثار الخالدة ؟

إن شوقي يقف الآن أمام مسجد قرطبة الذي تتمثل فيه (عبرة الدهر) :

لم يَرُعْني سوى ثرى قُرطبيٍ لمست فيه عبرةَ الدهر خمسي[2]

وهنا يستعير الشاعر من البحتري طريقته في التعبير :

يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهمُ يداي بلمس[3]

ولكن شوقي يغالي ويهوّل ، فلم تكون عبرة الدهر في قرطبة ولا تكون في غرناطة ؟ وإذا لم يزر غرناطة إلى الآن ، فلم لا تكون عبرة الدهر في المدن التاريخية التي محاها الدهر كمنفيس عاصمة الفراعنة !

---

١ — انظر اسبانيا كما رآها السياح المسلمون ... ص ١٠٩

٢ — الشوقيات : ٢/٥٧

٣ — ديوان البحتري : ١/١٠٩

إن رغبة شوقي في المغالاة والتهويل لا تفارقه وهو يتحدث عن ماضي قرطبة ، فقد كانت هذه العاصمة الغربية للأمويين « تمسك الأرض أن تميد وترسي » كما يقول ، ولكن ما الذي يجب أن نفهمه من قوله هذا ؟ هل نفهم أن قرطبة كانت تحت الحكم الأموي محور العالم ، تحفظ توازن القوى في الممالك وتعادلها ، أو أنها كانت أقوى البلاد هيبة وجنداً فهي تفرض سياستها على البلاد الأخرى ! لا ندري حقاً ماذا يريد شوقي ، ما دام يؤثر التفخيم والتعميم على الدقة والبساطة.

يجب أن نشير إلى أن صورة الأندلس ، كما يرسمها التاريخ العربي ، كانت تستأثر بشاعرية شوقي ، فقد كان الشاعر يتخطى الأجيال ، ليقف من وراء القرون أمام قرطبة حاضرة الأمويين في أزهر عصورها الذهبية ، مأخوذاً بروعة قصورها وعظمة الملك فيها ، أما قرطبة اليومِ ، بحاضرها الأعجف الهزيل ، فهي أعجز من أن تجذب اهتمام الشاعر ، وهي أفقر من أن تزوده بالمادة الغنية التي تثير وحي شاعريته وإلهامه ..

لابد لنا إذاً من العودة إلى التاريخ ، إلى النصف الأول من القرن الهجري الرابع ، لنشهد قرطبة العظيمة في ظلال حكم أعظم ملوك الأندلس الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر ، وأمّا ما يستأثر بشاعرية شوقي منها فهو تلك القصور الشامخة ، والمسجد الأعظم ، وموكب الناصر إلى صلاة الجمعة ، وقيادته الجيوش لانتزاع النصر والغلبة على

ملوك الأفرنج والتحكم في مصائر تيجانهم[1]

ركب الدهر خاطري في ثراها   فأتى ذلك الحمى بعد حدس

فتجلّت لي القصور ومن فيـ   ـها من العز في منازل قُعْسِ

وكأني بلغت للعلم بيتاً   فيه مال العقول من كل درس

قدساً في البلاد شرقاً وغرباً   حجه القوم من فقيه وقَس

وعلى الجمعة الجلالة والنا   صر نور الخميس تحت الدرفس

يُنزل التاج عن مفارقِ (دونٍ)   ويحلّي بـه جبين (البرنس)

ولا ريب في أن حظ هذه الأبيات من التفخيم كبير، لا يعدل حظها من الوضوح ، فلماذا يركب الدهر خاطر شوقي ؟ وهل تحتاج الذكرى إلى ركوب الدهر؟ وما الذي نفهمه من هذا البيت الفخم غير هاتين الكلمتين: «تذكرت الماضي» ليس غيرهما ! ثم ما طبيعة هذه الجلالة على الجمعة ؟ وما الذي يجب أن نفهم منها ! .. وعلينا أن نعترف بأن (بيت مال العقول) بيت يحتضر فيه الرونق الشعري ، وأن الصورة الحربية للناصر وجنده باهتة الألوان فاقدة الروح ساكنة الحركة .. وإذا كان شوقي يعارض هنا وصف البحتري لكسرى ، وهو يعبىء الجيوش في معركة أنطاكية ، فانه قد عجز دون ريب عن اللحاق بالشاعر العباسي فظل على الأرض ، بينما تعلق البحتري بالسحاب[2]

---

١ — الشوقيات ٢/٥٨ ، وانظر ماتقدم ص ٣٤-٣٨

٢ — ديوان البحتري : ١/١٠٨-١٠٩

فإذا ما رأيت صورة أنطا كيّة ارتعت بين رومٍ وفرسِ
والمنايا مواثلٌ وأنو شر وانَ يزجي الصفوف تحت الدرفسِ
وعِراك الرجالِ بين يديه في خفوتٍ منهم وإغماض جرْسِ
من مشيحٍ يهوي بعامل رمحٍ ومليحٍ من السنان بترسِ
تصف العين أنهم جِد أحيا ءٍ لهم بينهم إشارة خُرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهمُ يداي بلمسِ

ومن الخير لشوقي أن يعود من رحلته في أجواء الماضي ، إلى الحاضر الذي يراه بعينه ، وأن يدرك أن تخطيه للأجيال خلال التاريخ[1]

سِنةٌ من كرى وطيفُ أمانِ وصحا القلب من ضلالٍ وهجسِ

كما عاد البحتري من قبله إلى حاضره ، وأفاق من حلمه[2]

حلم مطبق على الشك عيني أم أمانٍ غيّرن ظني وحدسي

وما دام شوقي قد عاد إلى الواقع ، فلينظر بعينيه إلى حاضر قرطبة ، ليتأكد من أن مواكب المجد العربي الماضي قد غابت[1]

وإذا الدارُ ما بها من أنيسٍ وإذا القوم مالهم من مُحس

وبهذا الوصف الفقير اليابس الذي لا يشف عن خلجة نفس يصور شوقي خراب قرطبة واندثار الآثار العربية فيها !

---

١ — الشوقيات : ٢/٥٨

٢ — ديوان البحتري: ١/١٠٩

ما الذي بقي للعرب اليوم في قرطبة من آثار ؟ بقي الجامع الكبير الذي بناه عبد الرحمن الداخل منذ أكثر من ألف سنة ،وقد صار قسم منه إلى كنيسة ، فورثته المسيحية عن الاسلام ، ولا تزال أعمدته المرمرية إلى اليوم منتصبة ممشوقة مثل ألفات الوزير الخطّاط ابن مقلة، ولا يزال سقفه العالي إلى اليوم يحتفظ برسومه المذهبة ، وقد نقشت آي القرآن في جانبيه .. هذا الأثر المجيد الباقي إلى اليوم يستطيع شوقي أن يرسم له صورة (فوتوغرافية) ناجحة [١]

ورقيقٍ من البيوت عتيقٍ جاوز الألفَ غير مذموم حرْس [٢]
أثرٌ من (محمدٍ) وتُراث صار (للروح [٣]) ذي الولاء الأمس
مرمرٌ تسبح النواظرُ فيه ويطولُ المدى عليها فترسي
وسوارٍ كأنّها في استواءٍ ألفاتُ الوزير في عرْضِ طِرْسِ
وكأن الرفيف [٤] في مسرح العين ملاءٌ مُدنّراتُ الدِّمقْس
وكأن الآيات في جانبيه يتنزّلن من معارج قُدْس

ويطوف شوقي في أرجاء المسجد حتى يبلغ المحراب، وهناك يبحث عن منبر المسجد فلا يجده ، ذلك أن المنبر قد اختفى من المسجد منذ

---

١ — الشوقيات ٢/٥٨–٥٩

٢ — الدهر او قطعة منه .

٣ — هو عيسى عليه السلام

٤ — السقف .

العصر الوسيط، ولكن شوقي يستطيع أن يجد المنبر في كتب التاريخ، وأن يصوّره في شعره، ويتحدث عن أشهر خطيب كان يعتلي ذروته، وهو القاضي منذر بن سعيد البلوطي، المعروف بعدله وزهده وجرأته في الحق [١] :

منبرٌ تحت (منذرٍ) من جلالٍ لم يزل يكتسيه أو تحت (قسٍّ)

ويبحث شوقي في المحراب عن مصحف عثمان فلا يجده أيضاً، ذلك أن الموحدين حملوه معهم إلى مراكش منذ القرن السادس [٢] ، ولكن شوقي يستطيع أن يجدّد المكان الذي كان المصحف العثماني يحفظ فيه [٣]

ومكان الكتاب يُغريك ريّا ورده غائباً فتدنو لِلَمْس

وهكذا ينتهي حظ قرطبة من القصيدة، وينتقل شوقي بعد ذلك إلى غرناطة والحمراء.

لقد كان اهتمام شوقي بماضي قرطبة الزاهر يشغله عن حاضرها المؤلم، وكانت شاعريته تستوحي التاريخ العربي في قرطبة أكثر مما تستوحي آثاره الباقية، فالتاريخ هو الذي أوحى إلى الشاعر بصورة القاضي الخطيب المفوه منذر بن سعيد ولم يُوح به منبر المسجد، لأن شوقي لم يجد ذلك المنبر؛ والتاريخ هو الذي أثار الحديث عن مصحف عثمان

---

١ — الشوقيات : ٥٩/٢

٢ — انظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي : ص ٢٥٣

٣ — الشوقيات : ٥٩/٢

ولم يثره محراب المسجد ، فليس في المحراب اليوم ما يشير إليه ، ولعلّنا نكون أكثر انصافاً لشوقي إذا قلنا إنه يقترض مادته الشعرية من ماضي قرطبة الغني المجيد ، وذلك خيرٌ له دون ريب من أن يقترضها من حاضرها الفقير البائس الذي ارتاع له أوّل وصوله إلى قرطبة[١] :

لم يرعني سوى ثرى قرطبيٍ لمست فيه عبرة الدهر خمسي

وقبل أن يصل شوقي إلى الحمراء يستوحي الثلوج التي تكلل هام الجبال المحيطة بذلك الأثر العربي الخالد ، فإذا هي تبدو لشاعريته كالعصائب القطنية أو كالشيب السرمدي[٢] .. ويلقي الشاعر نظرة على الحمراء فيراها مجلّلةً بغبار الدهر :

من لحمراءَ جُلّلت بغبار الد هر كالجرح بين بُرءٍ ونُكسِ
كسنا البرق لو محا الضوءَ لحظٌ[٣] لَمحتها العيونُ من طول قَبْس
حصن غرناطة ودار بني الأحـ مر من غافلٍ ويقظان نَدسِ[٤]

ويدخل شوقي غرف الحمراء ، فيراها خالية مقفرة ، مشت فيها الحادثات «مشي النعيّ في دار عُرس» ، فهتكت عزة الحجاب، وأخلت العرصات من الخيل والحرس ، رمز الملك والمنعة ، ويتلفت الشاعر

---

١ — المصدر السابق : ٥٧/٢
٢ — انظر ما تقدم : ص ٤٢-٤٨
٣ — في الديوان (الضوءُ لحظاً) وهو خطأ أشار الى تصحيحه المستشرق هنري بيريس (انظر اسبانيا كما رآها السياح المسلمون : ١١٣)
٤ — الندس : الفهِم

حوله فيلقى وفود الزائرين ، يطوفون في الحمراء ، وكأنهم ضيوف على التاريخ ، يقفون مبهورين أمام النقوش البديعة التي تزين جدران الحمراء ، مفتونين بروعة الفن ودقة الصنعة [١]

عرصاتٌ تخلّت الخيلُ عنها ... واستراحت من احتراس وعسِ
لا ترى غير وافدين على التا ... ريخ ساعين في خشوع ونَكْسِ
نقّلوا الطرف في نضارة آسٍ ... من نقوش وفي عصارة ورْسِ
وقبابٍ من لازوردٍ وتبرٍ ... كالربى الشُمِّ بين ظلٍ وشمس
وخطوط تكفّلت للمعاني ... ولألفاظها بأزينِ لُبْسِ

وفي هذه الأبيات ألوان غنية مختلفة ، وصورٌ تبعث على الرهبة والخشوع ، ونفحة ملحمية عبقة ، وتوفيق فني ملحوظ في اختيار بعض الألفاظ ، ولكن هذا كله لا يخفي عن أعيننا هرب شوقي من الدقة إلى التفخيم والتعميم ، ومن الواقعية إلى الخيال ، فلقد كان الشاعر يرى بخياله أكثر مما يرى بعينيه ، وكان يستعير من البحتري أكثر مما يستقطره من نفسه ، حتى إذا وقف الشاعر في ساحة الأسود ، وحاول أن يرسم لها صورة تجمع بين حاضرها المقفر وماضيها الآهل الزاهي ، نظر أيضاً إلى قول البحتري [٢]

وكأن القيان وسط المقاصيـ ... ـر يرجعن بين حُوٍ ولُعسِ

---

١ — الشوقيات : ٢/٦٠
٢ — ديوان البحتري : ١/١٠٩

واستعار ريشة الشاعر العباسي ، وقال[١] :

وترى مجلس السباعِ خلاءً   مقفر القاع من ظباء وخُنْسِ

لا الثريا ولا جواري الثريا   يتنزّلن فيه أقمار إنسِ

ثم يقف شوقي أمام حوض الأسود المرمرية ، ويصور تدفق المياه من أفواهها على الحوض، في لوحة ضاحكة الملامح بهيجة الألوان[١] :

مرمرٌ قامت الأسود عليه   كلّةَ الظّفر ليّنات المجسّ

تنثر الماءَ في الحياض جُماناً   يتنزّى على ترائب مُلْسِ

وفي اعتقادنا أن شوقي كان يكون أكثر توفيقاً في لوحته لو أنه اختار لها ألواناً قاتمة ، فجعلنا نشارك السباع في وحشتها وعزلتها بعد أن أقفر مجلسها وخلا من الثريا وجواريها، ذلك أن مثل هذا الجو الكئيب تلائمه الألوان الحزينة وتنبو عنه الألوان الباسمة الزاهية .

ويخرج شوقي من أبهاء الحمراء ليفاجئنا بصورة رائعة للقصر ، يتألق فيها خياله ، فهذا القصر العربي الرابض على أكمة الحمراء إلى اليوم يبدو لعيني شوقي « كأنه راية الجيش العربي المنهزم ، خلّفها بالأمس القريب بين أسراه وقتلاه ![٢] » :

آخرَ العهد بالجزيرة كانت   بعدعركٍ من الزمان وضرس

فتراها ،تقول: رايةُ جيشٍ   بادبالأمس بين أسرٍ وحسِّ[٣]

---

١ — الشوقيات : ٢/٦٠

٢ — (شوقي شاعر العصر الحديث) للدكتور شوقي ضيف : ٨٣

٣ — الحسّ : القتل

وبهذا يمهّد شوقي لحملته العنيفة على أبي عبد الله الصغير، آخر ملوك بني الأحمر، فإذا هو - كما يصوره شوقي - وارث مُلك العرب في الأندلس، وقد باعه بثمن بخس لأعدائهم، فهدم بذلك ما بناه أجداده، وفرّق ما جمعوه، وكان جباناً جِبساً لا تليق به إمرة الناس! وليس من ريب في أن ريشة شوقي قست على الملك الصغير المسكين، متجاهلةً حقائق التاريخ وطبيعة النكبات الاجتماعية، ذلك أن المسئول عن إضاعة التراث العربي المجيد في الأندلس ليس هو الوارث الأخير له وحده، فقد شاء له القدر أن تصير إليه تركةٌ دبّ إليها الفساد وأثقلتها المحن، وأثخنتها الجراح خلال القرون السابقة، فلفظت بين يديه أنفاسها، لسوء حظه ونحس طالعه!

وعندما يصوّر شوقي خروج العرب من الأندلس، نسمع منه لحناً جميلاً يموج بالروح الملحمية القوية، فقد ركب العرب «البحر وهم أقوياء فكان عرشاً، وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشاً، وما تغيّر البحر، ولكن تغيّر الناس[1]».. تغيّرت أخلاقهم، وإنما الأمم بأخلاقها، فإذا ذهبت أخلاقهم ذهبوا معها، وتلك هي عقيدة شوقي يكررها دائماً، ويستمد من معينها كلّما انبرى للحكمة[2]

---

١ - (الموازنة بين الشعراء) لزكي مبارك: ١٦٢

٢ - الشوقيات ٢/٦٠ - ٦١

خرج القومُ في كتائبَ صُمٍّ عن حفاظٍ كمواكبِ الدفنِ خُرسِ
ركبوا بالبحار نعشاً وكانت تحت آبائهم هي العرش أمسِ
وإذا ما أصاب بنيانَ قومٍ وهْيُ خُلْقٍ فإنه وهْيُ أُسِّ

وقد أصاب شوقي في البيت الأول توفيقاً فنياً ضخماً في تصويره مواكب العرب الخارجين من الأندلس، الهاربين من وجه الأسبان، بالكتائب الصمّ الخُرس، العائدة من موكب الدفن، فقد دفن العرب مجدهم في أرض الأندلس، وعادوا من حيث جاءوا !

ويُنهي شوقي سينيته بأبيات يشكر فيها اسبانيا على حسن ضيافتها له ولأبنائه الذين شبوا في رباها، ويثني على سحر الطبيعة فيها، من ظلٍ كالخلد، وجنى داني القطوف، واقليم معتدل حسن، ليس صيفه بالقائظ ولا شتاؤه بالبارد[١]

يا دياراً نزلتُ كالخُلد ظلاً وجنى دانياً وسلسال أُنس
كُسيت أفرخي بظلك ريشاً وربا في رباك واشتدّ غرسي

ويؤكد الشاعر المنفي أنه لن ينسى صنيع اسبانيا، فبنو مصر لا يضيع لديهم الجميل، فسيظل لسانه يلهج بالثناء عليها، وسيظل قلبه موقوفاً على الولاء لها ..

ثم يختم شوقي سينيته بدعوة أبناء مصر إلى أن يتلمّسوا عظة الدهر وعبرة الماضي في الآثار العربية في الأندلس، فحسبهم طول هاعظاتٍ[١]:

---

١ — الشوقيات ٢/٦٠—٦١

حسبهم هـذه الطلولُ عظاتٍ   من جديد على الدهور ودَرْسِ

وكأن الشاعر المنفي غاب عنه في قوله هـذا خيال مصر ، وما خلّف الفراعنة على أرضها من آثار عجز الدهر عن محوها ، وقد كان شوقي قبل حين ينوح على مجد الفراعنة ، ويمجد الأهرام وأبا الهول ، فما الذي يدفعه الآن إلى قصر المصريين على الاتعاظ بآثار الأندلس ، وإلى نصحه لهم بأن يكتفوا بها دون غيرها ، وآثارُ الفراعنة الضخمة الهائلة تعيش بينهم ، ويقدم لهم كل حجر من أحجارها أروع العظات وأكمل العبر !

إن الشاعر المنفي يعاني تطوراً خطيراً في اتجاهاته ، وفي وسعنا أن نلتمس في نهاية هذه القصيدة ما يُعيننا على رصده ، فهذه هي المرة الأولى التي تستطيع فيها الأندلس أن تزحزح صورة مصر من خاطر شوقي ، وأن تحتل المسرح وحدها ، وإذا قدّرنا أيضاً أن شوقي يريد أن يحوّل نظرات المصريين المفتونين بالمجد الفرعوني وآثاره في بلدهم إلى آثار المجد العربي في الأندلس ، وجدنا حقاً أننا أمام منعطف جديد عميق الدلالة في شخصية الشاعر المصري .

وهكذا ننتهي من دراسة سينية شوقي ، وقد تجمّع له فيها رصيد أندلسي ضخم ، واستطاع الفردوس العربي المغصوب أن يفوز من أبياتها بحظ يزيد على حظ مصر منها ، وإن لم يستطع أن يحظى من

قلب الشاعر بارتعاشة وجدانية غامرة كتلك التي حظيت بها مصر ، فإذا مكانها من حنين الشاعر لا تعدله جنّة الخلد !

لقد أظهرتنا السينية على جملة من خصائص أدب الشاعر في المنفى ، وأهمها أن الآثار الأندلسية التي طاف بها الشاعر لم تكن مصدر وحيه أكثر الأحيان ، فكانت شاعريته تستوحي التاريخ الاسلامي الأندلسي وتصدر عن كتبه أكثر مما تستوحي الأرض الأندلسية وتصدر عنها .. كان شوقي ينظر إلى آثار المجد العربي في الأندلس بعين واحدة ، وعينه الأخرى تلتقط له الصور التاريخية الزاهية من طيّات الكتب الأندلسية التي قرأها ، وتمده بها ، فإذا هي لغناها وروعتها تغطي ساحة الشعور ، وتزحم الصور الحاضرة الفقيرة بظلالها وألوانها

وكان في استطاعة شوقي أن يغني صوره بالنظرات العميقة التي يرسلها الشاعر الفنان في سرّ الحياة والكون فتضيء أمامه أغوار الماضي وتهتك لعينيه حجب المستقبل .. وكان في استطاعته أن يُنطق الآثار التي رآها بقصة البطولة العربية الفذة التي ترويها الأرض الأندلسية لكل زائر ، وأن يعيرها شيئاً من وجيب قلبه وخفقة أضلاعه، فيحرّك بذلك جمودها الحجري ، ويستقطر من الصخر أعجب المعاني الروحية وأخلدها ! ولكن شوقي — لسوء حظ الأدب — لم يُعن بشيء من ذلك ، واكتفى غالباً بعرض سريع يابس للصور ، حتى إذا بدت لنا

في بعض جوانب القصيدة نفحات ملحمية حماسية ، فإنها كانت تستمد مقوّماتها من إحكام الصياغة اللفظية ، والحرص الشديد على التفخيم والتهويل .

— ٩ —

أما « صقر قريش » فأثر أندلسي المادة والقالب معاً ، ذلك أن فن الموشحات ولد في الأندلس ، في أواخر القرن الثالث الهجري ، ونشأ في تلك البيئة اللاهية المرحة ، يمدّ الغناء بالمادة الأساسية التي تلزمه ، من شعر سهل رقيق ، راقص الأوزان متعدّد القوافي ..

استعار شوقي قالبه الأندلسي من وشّاح اشبيلية وشاعرها في القرن السابع الهجري ابراهيم بن سهل[1] ، فنسج على نهج موشحته العاطفية الرقيقة[2] :

هل درى ظبيُ الحمى أن قد حمى   قلب صبٍ حلَّه عن مَكْنَسِ
فهو في حرٍ وخفقٍ مثلما   لعبت ريحُ الصبا بالقبسِ

---

١ — ابراهيم بن سهل كان يهودياً ، من الاسبان المستعربين ، وكان يلقب قبل اعتناقه الاسلام بالاسرائيلي ، له ديوان مطبوع ، وتوفي غريقاً سنة ٦٤٩ هـ .

٢ — الموشحات الأندلسية (مناهل الادب العربي) ج ١٨/٤٣

ولقد لقيت هذه الموشحة نجاحاً ورواجاً ، فعارضها في القرن الثامن الوزير ابن الخطيب صاحب « رقم الحلل في نظم الدول » بموشحة رائعة حقاً ، جمع فيها الغزل إلى وصف الطبيعة ومدح بعض ملوك بني الأحمر ، وبدأها بهذا القُفل[1] :

جادكَ الغيث إذا الغيثُ همى   يا زمان الوصل بالأندلسِ
لم يكن وصلُك إلا حُلُما   في الكرى أو خُلسة المختلسِ

وكأن صدى صرخة ابن الخطيب كان يؤوب في مسمع شوقي، مردداً هذا النداء الهامس الحزين : « يا زمان الوصل في الأندلس » فيثير في قلب الشاعر المنفي حنينه إلى الشرق ، وتنبعث من أعماق وجدانه هذه الشكوى اللهيفة الملتاعة[2]

من لنضوٍ يتنزّى ألما   برح الشوقُ به في الغَلَسِ
حنّ للبان وناجى العلما   أين شرق الأرض من أندلس!

وبذلك يلتقي لحن شوقي بلحني ابن سهل وابن الخطيب معاً

أما مادة شوقي التي صبها في هذا القالب الأندلسي فهي أندلسية خالصة أيضاً ، تروي قصة عبد الرحمن الداخل ، مؤسس الدولة الأموية في الأندلس ، وللداخل قصة بطولةٍ يُزهى بها التاريخ ، ذلك أنه كان أحد أبطال الأسرة المالكة الأموية، وقد تمكن من النجاة بنفسه من سيف

---

١ — الموشحات الأندلسية (مناهل الأدب العربي) ج ١٩/٥٣

٢ — الشوقيات : ٢/٢١٤

السفّاح العباسي ، بعد انهيار الملك الأموي في الشرق ، واستطاع بجهده وعبقريته أن يقيم للأمويين ملكاً جديداً في الغرب ، بلغت به الأندلس الاسلامية ذروة مجدها وحضارتها

ولا ريب في أن اعجاب شوقي بشخصية عبد الرحمن الداخل هو الذي دعاه إلى تمجيده في هذه الموشحة ، فقد كان (صقر قريش) البطل الأموي شاعراً رقيقاً ، وتكاد حاله قبيل وصوله إلى الملك تشبه حال الشاعر المنفي في آلامه وغربته وحنينه إلى المشرق ، ومن هنا كان إحساس شوقي بقصة الأمير الأموي البطل قوياً عميقاً [1] ، ومن ينابيع هذا الإحساس القوي العميق تفجّرت موشحة شوقي الرائعة ؛ وهكذا تدفقت منذ القفل الأول من الموشحة عاطفة قوية ، تأسر بصدقها وحرارتها القلوب ، وتنساب إلى الآذان ألفاظاً هامسة حلوة الجرس عذبة الوقع ، في تساؤل كئيب يفيض بأرق الحنين وأعذب النجوى :

« أين شرق الأرض من أندلس ! »

أما من هو هذا النضو الذي يتنزّى ألماً وشوقاً وحنيناً إلى المشرق فإنه « بلبلٌ علمّه البين البيان » ، واقتنصته شراك الشجون ، وضاقت به الأرض ، فهو في وحشته حائر بائر ، يكاد يجن ، وكلما غمره الليل بظلامه الدامس ، فزع إلى دموعه واستسلم إلى أنينه ، وأرسل الأنغام

---

١ — (حافظ وشوقي) لحسن كامل الصيرفي : ص ٦٩

من فمه ، يبث فيها أحزانه ، ويشكو ظلم الدهر له ، فقد ساءه الزمان وما زال يسوءه ، حتى لم يترك منه إلا رمقاً يتلاشى كما تتلاشى ذبالة السراج في آخر الليل ..

قلتُ للّيل وللّيل عوادْ من أخو البث فقال: ابنُ فراقْ[١]
قلتُ ما واديه قال الشجوُ وادْ ليس فيه من حجازٍ أو عراقْ

وجميلة حقاً هذه المناجاة الهادئة بين الشاعر والليل ، فكأن أنين البلبل حرّك قلب شوقي فراح يسأل الليل عن حال هذا الطير النادب، وأجابه الليل بأنه بلبلٌ غريب ابنُ فراقٍ ، وطنه(وادي الألم) الذي تفنى عنده القوميات والأجناس والأوطان !

لم يكن هذا البلبل غير كناية موفقة عن الشاعر المنفي ، كناية تكاد تصبح تقليدية عند شوقي ، فالطير والشاعر غريبان نازحان غريقان في لجة الهموم ، أصابتهما سهام للدهر لاتخطىء[٢]

أيها الصارخ من بحر الهموم ماعسى يُغني غريقٌ عن غريقْ
إن هذا السهم لي منه كُلومْ كلّنا نازح أيكٍ وفريقْ

وبانتهاء هذا المقطع من الموشحة يتم القسم الأول منها ، وهو يفيض بالروح الغنائية الوجدانية ، ومن ثم يبدأ القسمُ التاريخي الذي يروي فيه الشاعر سيرة صقر قريش ، ويمهد شوقي لذلك بدعوة شباب

---

١ — الشوقيات : ٢/٢١٥

٢ — المصدر السابق : ٢/٢١٦

الشرق إلى يتلمسوا في قصة البطل الأموي نموذجاً رفيعاً للطموح وعلو الهمة ، وهو يعدهم بأن يرويها بلسان يؤثر الصدق ، وقلم حر لم يُغمس في هوى

وتبدأ القصة بالحديث عن النزاع على الخلافة بين الهاشمية والمروانية، فقد وقفت المروانية وراء ثأر عثمان ، تهيج به النفوس الشامية ، حتى استطاعت الوصول إلى العرش ، وأثار آل البيت مأساة الحسين ليهيجوا النفوس الحجازية ، وينازعوا المروانية عرشهم [1]

مكرٌ ساسٌ على الدهماء جازٍ ورُعاةٌ بالرعايا يلعبون

جعلوا الحقَّ لبغيٍ سلّما فهو كالستر لهم والتُرسِ

وقديماً باسمه قد ظَلَمَا كلّ ذي مئذنةٍ أو جرسِ

ويلخص شوقي فترة الحكم الأموي بالحديث عما أراقه الأمويون من دموع ودماء ، وما اقترفوه من مظالم ، حتى رماهم الله بأظلم منهم، فإذا أبناؤهم يُجزون عنهم شرّ الجزاء ، يحصدهم سيف أبي مسلم داعية العباسيين ، ويُغطي الجذوع بالمصاليب منهم ... وعندما يعتلي السفاح سدة الخلافة يُعمل السيف في رقاب من بقي من الأمويين ، لا يريد أن يرى على ظهر الأرض منهم أحداً ، ويُدرك الجند العباسيون الأمير الأموي عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام ، ويحاصرونه فيلقي بنفسه في الفرات سابحاً ، ومعه أخ له ابن ثماني سنوات ، ويصيح الجند بهما ويصرحون لهما بالأمان ليعودا ، ويُخدع الصغير بالدعوة فيرتد

(١) المصدر السابق : ٢/٢١٧

إليهم ليطيح السيف برأسه إثر وصوله إلى الضفة ، وعلى الضفة الأخرى كان عبد الرحمن فائر الدم ، سخيَّ الدمع ، يشهد بعينيه مصرع أخيه الصغير [١]

صحب الداخل من إخوته حدثٌ خاض الغمارَ ابنُ ثمانْ
غلب الموجُ على قوّته فكأن الموج من جُند الزمان
وإذا بالشط من شِقْوته صائح صاح به: نلت الأمان
فانثنى منخدعاً مُستسلما شاةٌ اغترّت بعهد الأطلسِ
خضب الجندُ به الارض دما وقلوبُ الجند كالصخر القَسي

وبمثل هذه الروح القصصية التاريخية العابقة بأنفاس الملاحم ، يتابع شوقي عرض سيرة الصقر القرشي ، فيرينا إياه وقد انسلّ من بين الخطوب ، يتأكله الألم والحزن على عز أميّة الزائل في الشرق ، ويدفعه العزم والطموح إلى بناء مجد جديد لها في الغرب ، وليس معه من الأعوان والخدم غير (بدر) مولاه الثقة الأمين .

وهنا ينقلنا شوقي بقفزة عريضة إلى أفريقيا أُيرينا اضطراب الحال فيها قُبيل وصول الداخل إليها ، فقد كانت آية الفتح قد اضمحلّت فيها ، وانشقت الأمة فرقاً وأحزاباً ، وانقسم الجند على أنفسهم عندما فاض بهم الترف والغنى ، ولكن رحمة الله أدركتهم فساقت إليهم « العبقريّ النابه البعيد الهمة » فجدّد ماخلق ، وجمع

---

(١) الشوقيات ٢/٢١٨

ما تفرّق ، ثم سار بموكبه يعبر البحر إلى الأندلس [1]

بسلامٍ ياشراعاً مـادرى	ماعليه من حياءٍ وسخاءْ
في جناح المَلَكِ الروح جرى	وبريحٍ حفّها اللطفُ رُخاءْ
غسل اليمّ جراحات الثرى	ومحا الشدةَ من يمحو الرخاءْ
هل درى أندلس من قدما	داره من نحو بيت المقدس
بسليل الأمويين سما	فتحُ (موسى) مستقرّ الأسس

وفي هذه الأبيات عاطفة سمحة نبيلة ، تشف عن إعجاب شوقي بالأمير الأموي وحبه له ، فهو يحرس الشراع ويدعو له بالسلامة والأمان ، ويحيطه برعاية الملائكة ، حتى يصل به الى الأندلس .

وفي الأبيات التالية نشهد بناء دولة الداخل ، على أسس وطيدة من الأخلاق ، كما تعوّد شوقي أن يقول دائماً ، ثم لانلبث أن ننتقل مع الشاعر من أجواء هذا الماضي البعيد المجيد ، إلى حاضره حيث يقف بنا أمام قرطبة !

وكأن شوقي أحس بخلجات قلبه وهو يطأ بقدميه الأرض التي شهدت ماشاده الداخل من عز ومجد ، وكأنه كان يحوم حول قصر الأمويين الذي أقام الاسبان على أنقاضه متحفاً وكنيسة ، ذلك أننا نجد الشاعر المنفي حانياً على قلبه ، يسائله في حزن عمق صادق ، ولوعة

---

(١) الشوقيات ٢/٢٢٠

ظاهرة الانفعال [1]

أيها القلبُ أحق أنت جار   الذي كان على الدهر يُجير
هاهنا حلّ به الركب وسار   وهنا ثاوٍ إلى البعث الأسير
فلك بالسعد والنحس مُدار   صرعَ الجام وألوى بالمدير

وهنا تموج أمام عينى شوقي أطياف الماضي، كما يرسمها له التاريخ، فإذا القصر قائم من جديد في خياله، آهل بالحياة والعمران، وإذا أسراب الغيد الفاتنات ترتع في جنباته، تنقل الأقدام في الطّيب، وتطأ بها حبير السندس [1]

هاهنا كنت ترى حوّ الدّمى   فاتناتٍ بالشفاه اللّعُسِ
ناقلاتٍ في العبير القَدَما   واطئاتٍ في حبير السنْدس

ويجد شوقي المجال صالحاً لاستخلاص العبرة، فيدعو قارئه إلى الاتعاظ بأحوال الدنيا، ويصور له حيرة الأماني في حياة الإنسان والمنايا موكلة به [2]

الأماني حُلُم في يقظةٍ   والمنايا يقظة في حُلُم

ثم يخلص شوقي إلى مناجاة الصقر، يمجّد فيه الشاعرية والشجاعة، ويغالي في تصوير بطولته، فإذا رايته (العُقاب) تخفق على ركن السماك، وقد تسحبت من حولها أجنحة الملائكة!

---

١ — الشوقيات: ٢/٢٢١

٢ — المصدر السابق ٢/٢٢٢

ويخطر لشوقي أن يبحث عن رفات الصقر الأموي ،وكانت كتب التاريخ حدثته أن قبر الداخل كان في قصره (المنية) من قرطبة،ولكن الدهر لم يُبق للقصر كله ظلاً ،فكيف يهتدي المرء إلى ضريح عبد الرحمن! غير أن الشاعر ينتبه إلى أن قبور العظماء لا تندرس فذكراهم حيّةٌ خالدة أبداً ، على الأفواه أو في الأنفس[1]

كنتَ صقراً قرشياً علَما ... ما على الصقر إذا لم يُرمسِ

إن تسل أين قبورُ العظما ... فعلى الأفواه أو في الأنفس

ويبني شوقي في المقطع الأخير من موشحته الرائعة ، على اندراس قبر الداخل ، عظةً جميلة ، يلقيها بلهجة الحكيم الناصح[2] :

كم قبورٍ زيّنت جيد الثرى ... تحتها أنجسُ من ميت المجوس

كان من فيها وإن حازوا الثرى ... قبل موت الجسم أموات النفوس

وعظام تتزكّى عنبرا ... من ثناءٍ صرْنَ أغفالَ الرموس

فاتخذ قبرك من ذكرٍ فما ... تبْنِ مَن محموده لا يُطمَسِ

هبك من حِرْص سكنتَ الهرما ... أين بانيه المنيعُ المَلْمَسِ

وفي البيت الأخير قفزة كبيرة جداً ، تحمل شوقي من قرطبة الأندلس إلى هرم مصر وبانيه ، وبذلك تكون مصر قد اكتفت في هذه القصيدة ببيت واحد ، وهي حصة متواضعة جداً ، ولم تكن لترضى بها في أندلسيات شوقي الأخرى .

١ – الشوقيات : ٢/٢٢٢

٢ – المصدر السابق : ٢/٢٢٣

نستطيع أن نقول إذاً إن الأندلس استأثرت بهذه الموشحة البديعة، فهي كلها رصيد أندلسي ، بقالبها ومادتها ، فما هي قيمتها من شعر شوقي التاريخي ، وبتعبير أدق : هل وفق شوقي فيها إلى سلوك طريق الملحمة؟

لا بد لنا قبل الجواب على هذا السؤال من استعراض المقوّمات الأساسية للملحمة Epopée ،فإذا عدنا إلى الموسوعة الفرنسية الكبيرة[1] وجدنا فيها هذا التعريف : « الملحمة قصيدة قصصية طويلة النفس ، موضوعها بطولي ، تتدخل في حوادثها قوى خارقة للطبيعة » ولكن الموسوعة تعترف بعد قليل بأنّ هذه الحدود الضيقة للملحمة أملتها دراسة الملاحم الأولى ، كالملحمة الهوميرية التي تمثل طفولة العقلية الجماعية في حياة الشعوب ، ذلك أن الملحمة لم تلبث أن سايرت التطور الاجتماعي للشعوب ، فاتسع بذلك أفقها ، ولم يعد مفهومها مقصوراً على حكاية الأمجاد الحربية ،وعلى تدخل الآلهة والقوى الغيبية لتلعب أدواراً فيها..

ومهما يكن من أمر فإن نظرتنا الملحمية إلى (صقر قريش) تظل محدودةً بتلك المقاييس التقليدية التي اتفق النقاد اليونانيون واللاتينيون والفرنسيون على وجوب توفرها في كل ملحمة ، فالملحمة عندهم يجب أن تحوي هذه العناصر التالية

١ ـــ قصيدة شعرية طويلة النفس ،

٢ ـــ فخمة الأسلوب قوية الصياغة ،

---

١ – La Grande Encyclopédie المجلد ١٦ ص ١١٣ وما بعدها .

٣ ـــ تصور حوادث تاريخية قصصية بطولية ،

٤ – وتمزجها بالخيال ،

٥ – والسحر والغيبيّات .

وموشحة شوقي تستجيب دون إرهاق للعناصر الأربعة الأُول ، فهي قصيدة طويلة النفس ، تزيد على مائة وثلاثين بيتاً ،ترسم بأسلوب موسيقي فخم محكم الصياغة لوحاتٍ تاريخية ، تقص فيها حياة بطل عربي كبير النفس عريض الآمال بعيد الطموح ، وتستعير من الخيال ألواناً زاهية .. يبقى بعد هذا عنصر السحر والغيبيات وهو ليس مفقوداً تماماً في الموشحة ، وفي استطاعتنا أن نرى في الملك الروح (جبريل) ، وهو يسير في ركاب الداخل ويحرس شراع السفينة بأجنحته ، رمزاً لهذه القوى الخفية الخارقة للطبيعة البشرية .

ولكننا ـــ على الرغم مما قدمناه ـــ لا نزعم أن شوقي كان يسلك طريق الملحمة في الموشحة عن عمد وقصد ، فالعناصر الأربعة الأُول قد تتوفر له في غير مكان من شعره ، فتضوع منه أنفاس ملحمية عابقة ، ومثل هذه الأنفاس تؤلف مظاهر ملحمية في القصيدة ولكنها لا تؤلّف الملحمة؛ وجبريل في الموشحة وغيرها من شعر شوقي رمز مألوف يمثّل العناية الإلهية ليس غيرها ، ثم إنّ في القسم الأول من الموشحة نزعة غنائية طاغية ، وفي الأسماط الأخيرة مثلها ، كما يؤكد المستشرق هنري

بيريس [١] ، ومثل هذه الروح الغنائية الوجدانية لا محلّ لها في الشعر القصصي ، والملحمة نوعٌ منه [٢] .

— ١٠ —

في دراستنا لمسرحية شوقي النثرية (أميرة الأندلس) لا نهتم بغير الأثر الأندلسي فيها ، بالأطياف والشخصيات التي التقى بها الشاعر في قصر اشبيلية ، كما قدّمنا ، ذلك أن المسرحية ليست من آثار منفاه ، فقد كتبها في السنتين الأخيرتين من حياته [٣] . غير أنّ دراسة الشخصيات التاريخية في المسرحية تدفع بنا أيضاً إلى امتحان الحوادث التي أريد لها أن تلعبها .

قدّم التاريخ الأندلسي لشوقي في هذه المسرحية المادة الأولية ، ذلك أن وقائعها حقائق تاريخية مستقاة من (نفح الطيب) للمقّري ، تروي حكاية الملك العربي البائس المعتمد بن عبّاد ، آخر ملوك الأسرة العبادية ، ودولة بني عباد من أشهر دول الطوائف التي قامت على أنقاض الخلافة الأموية في الأندلس ، وعهد المعتمد بن عباد هو تلك الفترة القلقة التي تمثل انهيار حكم الطوائف في اسبانيا الاسلامية ، وقيام دولة المرابطين فيها .

قد يبدو غريباً اختيار هذه الفترة الحالكة من تاريخ العرب في

---

١ — اسبانيا كما رآها السياح المسلمون .. ص ١١٦

٢ — (النقد الأدبي) لأحمد أمين ٨٠

٣ — انظر ماتقدم : ص ٦٨ — ٦٩

الأندلس لمسرحية شوقي ، فهي فترة ضعف وانحلال وهزيمة لا تعين على تمجيد البطولة العربية في الأندلس ، وقد لاحظ النقاد أن شوقي يختار دوماً لمآسيه التاريخية مثل هذه الفترات في حياة الشعوب،فحمل عليه بعضهم حملة عنيفة واتهمه بأنه قد اغتاب الأمم [١] ، ودافع عنه آخرون بأن الكوارث هي التي تظهر معدن الناس ، وأن شوقي كان يهدف إلى إظهار البطولة وسط تلك الكوارث [٢] .. وفي اعتقادنا نحن أن لشخصية المعتمد بن عباد نفسه أكبر الأثر في اختياره ، دون غيره من شخصيات التاريخ العربي في الأندلس ، بطلاً لهذه المسرحية، فهذا الملك العبّادي له عند مؤرخي اسبانيا الاسلامية مكانة كبيرة بشخصيته التي جمعت المجد والبطولة والحب والشعر ، وسيرته قصة بديعة فيها كثير من الخطوط الغنية التي يستطيع الكاتب الفنان أن يتخذ منها إطاراً فنياً لأثر أدبي ناجح من قصة أو مسرحية [٣]،ولم يكن شوقي هو الأديب الوحيد الذي نسج حول حياة المعتمد بن عباد رواية مسرحية ، فقد سبقه إلى ذلك منذ عام ١٨٩٢ الكاتب المسرحي ابراهيم رمزي [٤] ، وهو ممثّل فنان أديب ناقد [٥] ، قدّم للمسرح العربي نتاجاً

---

١ — انظر (قمبيز في الميزان) لعباس محمود العقاد ص ٧٧

٢ — انظر (محاضرات عن مسرحيات شوقي) للدكتور محمد مندور ٢٢

٣ — (شوقي شاعر العصر الحديث) للدكتور شوقي ضيف ص ٢٧٦

٤ — (المسرحية في الأدب العربي الحديث) للدكتور محمد يوسف نجم ص ٢٩٨ — ٣٠٢

٥ — (حياتنا التمثيلية) لمحمد تيمور ص ٨٨

ضخماً من المؤلفات والمترجمات [١] وكانت مسرحية (المعتمد بن عباد) طليعة آثاره في حقل التأليف المسرحي [٢]،وقد كتب بعد شوقي الأستاذ علي الجارم قصة نثرية ، أسماها (شاعر ملك) حكى فيها سيرة المعتمد ابن عباد،وحلّل أسباب انهيار ملكه، وصور جوانب العصر.ويرجح بعضهم أن الجارم قد قرأ مسرحية شوقي قبل كتابة القصة،وأنه تفوّق على تصوير شوقي فيها إلى حد كبير [٣]

يحدّثنا التاريخ أن المعتمد بن عباد كان ملكاً لاشبيلية وقرطبة ، يوم كانت اشبيلية تمتاز بحياة أدبية صاخبة ، وكانت قرطبة تموج بالفقهاء والعلماء، وكان المعتمد أديباً شاعراً رقيقاً، فجمع في بلاطه عدداً كبيراً من الأدباء والشعراء،وكان الصراع آنذاك بين ملوك الطوائف شديداً، وكان ألفونسو السادس يفرض عليهم الإتاوات والضرائب بعد ابتلاعه مملكة طليطلة ، وخاف الملوك الصغار أن يبتلعهم ألفونسو ، فكاتبوا ملك المرابطين في المغرب ، يوسف بن تاشفين ،يستنجدون به،فأغاثهم ورد عنهم عدوّهم في موقعة الزلاقة ، ولكن الفقهاء شكوا إليه سوء الحال في بلادهم،وانشغال ملوكهم باللهو والخلاعة والمجون،واختلافهم وتناحرهم وكيد بعضهم لبعض ، واستعانتهم بأعدائهم على بعضهم ،

---

١ ــ ألف ابراهيم رمزي وترجم أكثر من ثلاثين مسرحية : انظر المسرحية في الأدب العربي الحديث : للدكتور محمد يوسف نجم ص٣٣٢

٢ ــ المصدر السابق ص ٢٩٩

٣ ــ (المسرحية في شعر شوقي)لمحمود حامد شوكت : ص ١٢٩

على الرغم من تهديد الفرنجة الدائم لهم... واستجاب يوسف إلى رجاء الفقهاء فعاد إلى الأندلس، وأزال العروش الصغيرة، وضم الأندلس إلى مُلك المرابطين في المغرب، وعندما رفض المعتمد أن يتخلى عن عرشه حاربه يوسف وأسره ونفاه صاغراً إلى (أغمات) حيث قضى في سجنه أربع سنوات، أسيرَ الأغلال والذكريات، وأسرته إلى جانبه، تغزل بناته ليأكلن ويعشن من غزلهن، إلى أن لقي الموت يائساً حزيناً.

ويحدّثنا التاريخ أيضاً أن المعتمد تزوج امرأة جميلة تسمى الرميكية وهي شخصية فذة، تمتاز بالظرف والشاعرية والجمال. وكان المعتمد لقيها يوماً تغسل الثياب على ضفاف نهر اشبيلية، فأجازت له بيتين من الشعر، ونالت إعجابه فتزوجها وقد شغفته حباً وصبابة، وقال فيها كثيراً من الشعر. وحياتها تصلح أن تكون وحدها قصة رائعة من قصص الحب[1]»

وقد احترم شوقي حقائق التاريخ في مسرحيته بوجه عام، كما يقول الدكتور محمد مندور[2]، ولكنه لم يكتف بالوقائع التاريخية فزاوج بينها وبين قصة خيالية نسجها حول حب بثينة بنت المعتمد، أميرة الأندلس، للفتى العربي حسّون، وانتهاء هذا الحب إلى الزواج في سجن (أغمات). ولم ينجح شوقي في ربط هذه القصة الخيالية بالكارثة الأساسية ربطاً وثيقاً، فبدت مفتعلة مصطنعة، وكان يجمل بشوقي أن يستغني عن هذا

---

١ ـ (شوقي شاعر العصر الحديث) للدكتور شوقي ضيف: ص ٢٧٦

٢ ـ (محاضرات عن مسرحيات شوقي) للدكتور محمد مندور: ص ٧١

الصراع العاطفي جملة وأن يستعيض عنه بتصوير غرام المعتمد بالرميكية، فمثل هذا الغرام قصة حب تاريخية ، لا يحتاج شوقي إلى ربطها بكارثة المعتمد ، ذلك أنها جزء من شخصيته التاريخية الجامعة ، ومن العجيب حقاً ألاّ يستغل شوقي شخصية الرميكية هذه في إغناء مسرحيته ، فنحن لا نسمع لها في (أميرة الاندلس) ذكراً غير ما تقصه عنها ابنتها بثينة أو الأديب ابن حيون

تبدأ حوادث المسرحية في قصر المعتمد في اشبيلية ، فنرى بثينة الأميرة الأندلسية فيه ، وقد عادت منذ قليل من قرطبة ، فقد ذهبت إليها متنكرة في زي غلام ، لتشتري بعض الكتب من سوق الوراقين فيها ، وكانت مولعة بالأدب مغرمة باقتناء كتبه ، وفي هذا السوق تلقى بثينة فتى بارع الحسن ظاهر النعمة محباً للكتب ، فيقع من نفسها موقعاً جميلاً

وتدخل بثينة على أبيها المعتمد وعنده القاضي ابن أدهم رسول الأمير سير بن أبي بكر قائد جيوش المرابطين ، وقد جاء يخطب بثينة لسيده، فترفض الأميرة طلبه ، لأن ابن أبي بكر رجل مزواج، تحته زوجات ثلاث ، ولن تكون هي الرابعة ! ثم تلتفت إلى أبيها وتحدثه عن شغب الفقهاء في قرطبة ودعوتهم يوسف بن تاشفين إلى امتلاك الأندلس

وفي يوم تتنكر بثينة بزي غلام ، وتقصد دار التاجر الاشبيلي

أبي الحسن فتاق فيها فتاها القرطبيّ الجميل ، وإذا هو حسون ابن التاجر ... ويحدثها عن قرطبة ، والمعركةالأخيرة فيها ،ومصرع حاكمها (الظافر) ولد المعتمد فيغمى على بثينة ، ويفتضح أمرها « فإذا الظبي مهاة وإذا البدر شمس[1] » !

وتمر فترة زمانية تنتهي باستيلاء المغاربة على اشبيلية ، وسبيهم بنات المعتمد وجواري قصره بعد أسره ، وتكون بثينة من حظ قائد بربري لا يلبث أن يضيق ذرعاً بمرضها ونحولها ، فيبيعها للتاجر أبي الحسن ، وهكذا تعود الصدفة بالأميرة الأندلسية إلى حبيبها حسون ، ولكنها ترفض الزواج منه قبل أن تلقى أباها وأهلها .. وهنا ينتقل المسرح إلى شمالي أفريقيا ، لنرى أبطال المسرحية مجتمعين في سجن أغمات ، حيث يباركون زواج الأميرة الجميلة !

ليس من همنا - في هذا الكتاب - أن نعي على شوقي انقلاب مأساته التاريخية بهذه النهاية (الرومانتيكية) إلى ملهاة مصطنعة ، أو إلى مهزلة ، كما يقول الدكتور مندور[2] ، فقد أضعف الأثر النفسي لهذه المأساة العربية المحزنة ، ولم يستطع أن يحلل الأسباب التي أدت إلى انهيار ذلك المُلك الشامخ ، ولم يستخلص الدرس القاسي من ضياع

---

١ — أميرة الأندلس : ص ٩٧

٢ — (محاضرات عن مسرحيات شوقي) للدكتور محمد مندور : ص ٧١

الأندلس ، ليتعظ به العرب اليوم ، ويزدادوا إيماناً بأن لا بقاء لهم ما داموا متفرقين متنابذين مختلفين .

غير أن الذي يهمنا من المسرحية شخصياتها التاريخية التي لقي أطيافها في القصر من اشبيلية ، كالمعتمد وابنته وزوجه وأمه ، وقد أغنى شوقي هذه الشخصيات بكثير من الخطوط المستعارة من التاريخ ، وهذا دليل درسه للأندلس ، وليس بعيداً أن يكون شوقي قد عاود هذا الدرس قبيل تأليفه المسرحية في آخر حياته ، ولهذا يصعب علينا أن نحدّد حصة المنفى من هذا الدرس ، لنعرف الرصيد الأندلسي الذي غادر به شوقي اسبانيا عائداً إلى وطنه .

ومع ذلك يأخذ الدكتور ضيف على شوقي « أنه لم يُعمّق معرفته بالتاريخ الأندلسي في هذه الفترة من حكم ملوك الطوائف ، وأنه لم يُعمّق خاصة معرفته بتاريخ المعتمد بن عباد وأخبار بلاطه ، وأخباره مع الشعراء ومع رعيته[1] » ، وهو يأخذ على شوقي بعض الأخطاء التاريخية في الأسماء ، وبعض الاضطراب في تتابع الحوادث التاريخية وتعاقبها ، ثم هو يلاحظ أخيراً ملاحظة خطيرة وصائبة وهي أن شوقي في (أميرة الأندلس) يعرف المدن الأندلسية وخصائصها بأكثر مما يعرف الأشخاص وخصائصهم ؛ والسر في صواب هذه الملاحظة أن شوقي قرأ كثيراً عن هذه المدن ، خلال إقامته في برشلونة ، ثم أتيح

١ ــ (شوقي شاعر العصر الحديث) للدكتور شوقي ضيف :ص ٢٨٣

له خلال زيارته لهذه المدن أن يركز الصور التي أخذها من كتب التاريخ عنها ، وأن يلوّن خطوطها ، بينما تظل صلته بالشخصيات سطحية رقيقة ، وتظل صورها في نفسه باهتة الخطوط شاحبة الظلال .

ومن هنا تبدو قيمة تلك الرحلة إلى الأندلس في مسرحية شوقي فقد أوحى له القصر في اشبيلية بأشخاص الرواية ، وزاده طوافه بالمدن الأندلسية معرفة بها ، وتمثلاً لخصائصها التي حدثه التاريخ عنها

— ١١ —

كانت بائية شوقي التي ألقيت في اجتماع لجان التموين عام ١٩٢٠ فاتحة شعره بعد عودته من المنفى[١] وقد أشاد فيها بالأندلس ، وشكر لها جميلها ، وصور عودته منها واستقبال الشباب له في محطة القاهرة ومن هنا لا نخطىء إذا عددناها قصيدة في وداع الأندلس وألحقناها بأندلسياته وجعلناها من آثار الشاعر في مرحلة العودة إلى مصر .

يبدو أن شوقي كان لا يزال متأثراً بوقوفه على أطلال الأندلس عندما بدأ قصيدته هذه بمناداة الرسم والبكاء على الدمن ، تحية لها ووفاء لحقها[١]

أنادي الرسم لو ملك الجوابا وأجزيه بدمعي لو أثابا

١ ـ الشوقيات : ١/٥٤

نثرت الدمع في الدمن البوالي كنظمي في كواعبها الشبابا[1]
وقفتُ بها كما شاءت وشاءوا وقوفاً علّم الصبر الذّهابا
وبين جوانحي وافٍ ألوفٌ إذا لمح الديار مضى وثابا

وهكذا يثب قلب شوقي عندما يلمح مصر ، وتستعد شاعريته لتصوير فرحته بعودته إلى وطنه بعد يأسه وطول غربته ، ولكن شوقي يؤثر أن يوفي قبل ذلك حقوق الأندلس ، فيرسل إليها تحية الوداع ، ويخلص لها الثناء الجميل ، ويشكر لها إقامته في ربوعها عزيزاً مكرماً[2]

وداعاً أرض أندلسٍ وهذا ثنائي إن رضيتِ به ثوابا
تخذ ُتكِ موئلاً فحللتُ أندى ذرى من وائلٍ وأعزَّ غابا

ولأَول مرة نشهد تدفق عاطفة الحب للأندلس من قلب شوقي صادقة حارة ، ذلك أن مصر ، وقد عاد الشاعر إليها ، لم تعد تنازع الأندلس على قلب الشاعر ، بالحنين إليها ، فاستبد الفردوس العربي المغصوب بفورة غامرة من وجدان شوقي ، فإذا هو يرى فيها جنة عدن . وقد قضى الله له أن يدخلها عند غربته ، وإذا هو ينسى آلام النفي ومرارة الغربة ، ويحمد للأندلس أنها أراحته من غطرسة كلّ خوّان غادر ، وأظهرته على خراب الأخلاق عند كثير من أبناء قومه[3]

---

١ — يريد بالكواعب هنا الديار قبل أن تستحيل إلى أطلال ودمن
٢ — الشوقيات ١/٥٥

مغربُ آدمٍ من دار عدنٍ قضاها في حماكِ لي اغترابا
شكرتُ الفُلكَ يومَ حويتِ رحلي فيا لمفارق شكرَ الغرابا
فأنتِ أرحتني من كل أنفٍ كأنف الميتِ في النزع انتصابا
ومنظرِ كل خوّانٍ يراني بوجهٍ كالبغي رمى النقابا
وليس بعامرٍ بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم تمر أمام شوقي أطياف من مواكب المجد العربي في الأندلس، وصور من مشاهد حضارتها الغنية ، فإذا هو يسأل الأرض الأندلسية عن الزهراء جارية الناصر ، وعن المعتمد وقصره الزاهي ، ولكنه لا ينتظر منها جواباً ، فهو يعرف أن غاية كل صفوٍ إلى كدر[1]

أحق كنت للزهراء ساحاً وكنت لساكن (الزاهي) رحابا
أولئك أمة ضربوا المعالي بمشرقها ومغربها قبابا
جرى كدراً لهم صفوُ الليالي وغاية كلّ صفوٍ أن يُشابا

ثم تغيب صورة الأندلس ، ليتجه الشاعر العائد من منفاه إلى مصر، وتفيض من أعماق قلبه عاطفة مشبوبة ، تصور فرحته بالعودة إلى وطنه ، وإذا نحن أمام نزعة وطنية عنيفة لم نكن نعهدها من قبل عند شوقي ، وإذا هي تتضخم حتى تحجب عن عيوننا نزعته الدينية أو تكاد، فقد أصبحت الوطنية دين الشاعر العائد ، وأصبحت مصر قبلته في

١ ـ الشوقيات ١/٥٥

صلاته قبل مكة والبيت الحرام[١]

ويا وطني لقيتُك بعد يأسٍ كأني قد لقيتُ بك الشبابا

ولو أني دُعيتُ لكنت ديني عليه أقابل الحتم المجابا

أدير إليك قبل البيت وجهي إذا فُهت الشهادة والمتابا

وتمثل هذه الأبيات منعطفاً خطيراً في شخصية شوقي، وإن يكن الشاعر المعروف بتوقيره للدين قد أراد بها تمثيل فرحته الطاغية بالعودة إلى وطنه، وفي هذا الجو العاطفي من تقديس الوطن[٢] يتّسق خيال شوقي، فإذا الاسكندرية تهدى بنورها الباخرة على بعد ثلاث مراحل، كما تهدي المدينة المنورة الحجيج، وإذا منارها يغشّي البحر بنوره، كما غشت الأنوار الإلهية الطور وغطت شعابه أمام عيني موسى، وإذا ثرى مصر طاهر عبق[١]

هدانا ضوءُ ثغركِ من ثلاثٍ كما تهدي (المنورةُ) الركابا

وقد غشّى المنارُ البحر نوراً كنار (الطور) جلّلت الشعابا

وقيل الثغرُ، فاتّأدت فأرست فكانت من ثراكِ الطُهْر قابا

وما دام الزمان قد مكّن الآن للشاعر أن يبلغ أمانيه، فله أن ينال منه الصفح عن قديم إساءاته إليه[١]

فصفحاً للزمان لصبحِ يومٍ به أضحى الزمان إليَّ تابا

---

١ ـ الشوقيات : ٥٦/١

٢ ـ (وطنية شوقي) للدكتور أحمد الحوفي :ص ٩٥

ففي صباح هذا اليوم الخالد في حياة شوقي خرجت القاهرة بشبابها وطلابها تستقبل الشاعر العائد من منفاه استقبال البطل ، وقد كان لهذا التكريم من الشباب أثره الكبير في نفس شوقي، فها هو ذا يحييهم أطيب التحية ، ويفتن في وصفهم ، فهم فتيان سماح ، في طهر الملائكة وفي كرم البحور . يأتلقون كالشهب بنور العلم والكرم ، وهم شباب مصر الفتية الناهضة ، وهو عند نفسه لا يستحق كلّ هذا التقدير منهم، ولكنهم أرادوا أن يظهروا له حبهم وتكريمهم[1]

وما أدبي لِمـــا أسدَوْه أهل ولكن من أحبَّ الشيء حابي

وهنا يصل شوقي إلى قضية التموين والغلاء ، وقد كانت إذ ذاك شغل البلاد الشاغل ، وكانت مصر تعاني وطأة الجوع ، فإذا صوت الشاعر ينطلق ضارعاً إلى الله أن يخفف عن كنانته العذاب ، ويسأل شباب النيل أن يهزوا بدعواتهم العرش[1]

شباب النيل إن لكم لصوتاً ملبى حين يُرفع مستجابا

فهزوا العرش بالدعوات حتى يخفف عن كنانته العذابا

ويرجو شوقي أن تجد مصر « يوسف » جديداً يقيها من الجوع في سنوات المحل والشدة ، وهو يبحث عن هذا المنقذ بين الشعب[1]:

وهل في القوم يوسف يتّقيها ويُحسن حسبةً ويرى صوابا

والشاعر العائد لا يلتفت في هذا كله إلى ملك مصر ، ولا يرجو

---

١ ــ الشوقيات : ١/٥٧

عنده خيراً ، ولا يتجه بصرخاته إلى « الحضرة الفخيمة الخديوية » كما كان يفعل قبل النفي ، بل إلى التجار من أبناء مصر ، وإلى الأغنياء الموسرين من شعب مصر ، يحثهم على البذل وزكاة الغنى والمال ، ويحذرهم غضبة الجياع الفقراء البائسين ؛ وهذه العناية بالفقراء وآلامهم وتموينهم وجوعهم تمثل منعطفاً آخر في شخصية شاعر البلاط السابق ، فقد كانت هذه الألحان الاشتراكية الشعبية لا تخرج من فمه ، ولا يستسيغها ذوقه الارستقراطي المنعم ..

وهكذا ننتهي من دراسة هذه القصيدة التي جعلناها خاتمة لآثار شوقي الأندلسية وفاتحة لشعره بعد المنفى ، وقد رأينا أنها ترسم لنا بعض المنعطفات في شخصية الشاعر ، وتوحي لنا ببعض الخطوط الخطيرة من النهج الجديد الذي سيسير عليه في حياته الأدبية بعد منفاه .

— ١٢ —

والآن وقد وصلنا إلى نهاية هذه الدراسة المفصّلة لأندلسيات شوقي ، نحاول أن نكتشف الخصائص التي امتاز بها أدب الشاعر في منفاه ، من حيث الصياغة والقوالب ، ومن حيث المادة والمضمون.

فأما القوالب فكلها قديمة مستعارة من المتقدمين ، وقد رأينا شوقي في إنتاجه الأندلسي كله حريصاً على السير في ظلال الفحول من

القدماء ، يتكيء عليهم ، ويختار الجيد المشهور من آثارهم ، فينسج على منوالها ، ويعارضها في الوزن والقافية ، وفي الألفاظ والتراكيب ، وفي الديباجة والنفس ، وكثيراً ما كانت معاني تلك الآثار تتسرب مع القوالب المستعارة ، فإذا هي طوع شاعرية شوقي ، وإذا هي أحياناً تقود فكره ، وتسيطر على وحيه وإلهامه ، وتوجهه وجهة لا يستسيغها الذوق والفن ، ومثال ذلك فخر شوقي بنفسه وبشاعريته في رثائه لأمه ، فتلك ورطة دفعه إليها (مثله الأعلى) وصاحب القالب المستعار للمرثية ، أبو الطيب المتنبي ، وأبو الطيب مبتلىً بتضخّم (الأنا) وجنون العظمة ، فليس عجيباً أن يدفعه افتتانه بشخصيته الطاغية في كل أغراض شعره إلى تمجيد نفسه وشاعريته في رثائه لجدته ، وقد يكون للمتنبي بعض العذر من موهبته وعصره ، فما عذر شوقي في الانسياق وراء المتنبي والخضوع لشخصيته ! ألأنه نشأ في حياته الأدبية على رهبة من هذا الشاعر الفحل ، كما يقول الرافعي[1] ، أم لأنه يرغب عن قصد وعمد في تتبع خطوات مثله الأعلى في الصناعة الشعرية ! ولو كان الأمر يقف بشوقي عند معارضة المتنبي في هذه القصيدة لما اضطررنا إلى الوقوف عند هذه الخاصة كثيراً ، ولكننا ننظر في أندلسيات شوقي فلا نجد له أثراً مستقلاً ، منذ ركوبه السفينة من السويس إلى مغادرته اسبانيا ، فهو في نثره يتخذ من أطواق الذهب

---

١ — مقالة للرافعي بعنوان (شوقي) : انظر ذكرى الشاعرين : ٢/٤٨٧

وأطباقه[١] مثلاً أعلى في الكتابة ، فيقلّد[٢] في (قناة السويس) أسلوب الزمخشري والأصفهاني ، ويأتينا بالسجع بعد زوال عصره وتنكر الذوق الحديث له ، وهو في الشعر يقلّد لسان الدين بن الخطيب وابن زيدون والمتنبي والبحتري وابن سهل ، يحاكيهم ويعارضهم ، حتى إننا لنقرأ اليوم هذه الأندلسيات فلا نحتاج إلى تعب أو مشقة لنجد القصائد القديمة التي يحاكيها ويعارضها[٣] ، وبذلك يصبح نصيب (الذاتيـة) ضئيلاً في أدب الشاعر المنفي ، وتصبح صياغته وجوانب من معانيه أسيرة التقليد والمعارضة .

إن أدب (المعارضة) يمثل المرحلة الأولى في نهضة الشعر العربي في العصر الحديث ، وقد عُني به (البارودي) عناية خاصة ، وكانت غايته من معارضة الفحول السابقين أن يثبت قدرة الشاعر الحديث على التحليق في سمائهم ، بعد أن ظلت أجنحة الشعراء ، طوال عصور الانحطاط ، عاجزة لا تقوى على الارتفاع بهم في الأجواء العالية ، وبذلك ردّ البارودي إلى المعاصرين الثقة بفنهم وقدرتهم على منافسة الشعراء العباسيين والأمويين والمخضرمين والجاهليين في ميدان اللغة

---

١ ـ (أطواق الذهب) للزمخشري و (أطباق الذهب) للأصفهاني ،وسمى شوقي كتابه (أسواق الذهب) تقليداً ومحاكاة لهما.

٢ ـ انظر مقدمة (أسواق الذهب) : ص ٣ ومقالة للأستاذ محمد كرد علي في (ذكرى الشاعرين) : ص ٤٣٦.

٣ ـ (حافظ وشوقي) لطه حسين : ص ١٩٥

والأساليب ، وكان على الشعر الحديث أن يبدأ بعد ذلك مرحلة الابتكار والاستقلال والانطلاق والتجديد .

غير أن شوقي يعكس في أدبه هاتين المرحلتين ويقلبهما قلباً عجيباً ذلك أنه **يبدأ مجدداً ثم يتطور فينقلب مقلداً** حتى إذا كانت أعوامه الأخيرة ـ كما يقول بحق الدكتور طه حسين ـ كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء ، لا يتستر فيه ولا يحتاط [1] ويصبح من السهل على النقاد بعد ذلك أن يقولوا « إن صياغة شوقي لم تكن مستقلة في الغالب ، بل هي محاكاة للصياغة (الكلاسيكية) التي ألقت ظلالاً على شخصيته وصيرتها شخصية مصبوبة في شخصيات القدامى [2] »

هذه ظاهرة غريبة تدفع بنا إلى البحث عن سر **نمو نزعة التقليد** عند شوقي ، في أدبه عامة وفي أندلسياته خاصة ، وليس من السهل أن نحدد العوامل التي أسهمت في تضخيم هذه النزعة ، ورجاؤنا أن نلم بأهمها

كان شوقي قبل منفاه أسير بيئة القصر وتقاليد البلاط ، تُثقل قيودُ منصبه ، وهو شاعر الأمير ، ربةَ شعره ، وتحدّ دائرة خياله

---

١ ـ المصدر السابق : ص ١٩٥

٢ ـ كلمة للدكتور محمد صبري انظر (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) لمصطفى السحرتي : ص ١٥٧

بحدود القصر وصاحبه ، وتجمّد انفعاله إلا ضمن هذه الحدود الضيقة ، « فكان طبيعياً أن يلجأ إلى ما يرفه عن شاعريته ويخفف العبء عن عبقريته ، ولا ملجأ أقرب ورداً لبلوغ هذه الغاية من معارضة الأقدمين ، وإلى هذا الركن لجأ شوقي ، ومن هذا الورد نهل[1] » ؛ فهذا أحد العوامل ، يشير إليه الدكتور محمد حسين هيكل

ولقد كان شوقي يحب نفسه ويحب الثناء عليها ، ويغار أشدّ من غيرة الحسناء إذا جمعها الحسن بثانية لها ، ولو كانت هذه الثانية ابنتها ! أليس شوقي هو القائل عند ولادة ابنه علي[2]

هم يحسدوني عليه ويغبطوني بسعدي
ولا أراني ونجلي سنلتقي عند مجد
وسوف يعلم بيتي أني أنا النسل وحدي !

إنه يغار من أن ينافسه ابنه ، فيقرر له أن يتخلف عن مجد أبيه ، وألا يبلغ عبقريته ؛ وهذه الغيرة جعلت شوقي « كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظاله . فعارض المتقدمين بشعره كأنه معهم ، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ، ونافس ذاته أيضاً ليجعل شوقي أشعر من شوقي ![3] » فهذا عامل ثانٍ يُشير إليه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

---

١ ـ مقالة للدكتور محمد حسين هيكل بعنوان (شوقي) : انظر (ذكرى الشاعرين) ٢/٤٢٢

٢ ـ الشوقيات ٤/٧٢

٣ ـ مقالة الرافعي التي تقدم ذكرها : (ذكرى الشاعرين) :٢/٤٧٤

ولقد كان شوقي عند نفسه لا يقل عن أفحل الشعراء القدامى موهبة وفناً وفي صفحات كثيرة من ديوانه إدلالٌ لا حدَّ له بشاعريته ، فشعره يُزري بزهير بن أبي سلمى [١] ، وهو في تمجيد عبد الحميد حسّان بن ثابت وأبو نواس[٢] ، وفي رثاء قاسم أمين بشارُ بن برد[٣] وشعره يهز الخديوي عباساً كما يهز أبو تمام أبا اسحق المعتصم إعجاباً واستحساناً[٤] ، وقد أعاد الله به أبا عبادة البحتري إلى الحياة من جديد[٥] ، ثم هو يفضل أبا الطيب المتنبي، ذلك أنه متنبي عصره يزهد بما في يد عبد الحميد من عطايا وجوائز. وشعره كله درر خالصة وللمتنبي درة وحصاة[٦]

زهدت الذي في راحتيك وشاقني   جوائز عند الله مُبتغَيات

---

١ ـ يُزري قريضي زهيراً حين أمدحه   ولا يُقاس إلى جودي ندى هَرِم
(الشوقيات ١/٢٤٤)

٢ ـ ملكت أمير المؤمنين (ابن هانىء)   بفضلٍ له الالبابُ ممتلكاتُ
ومازلتُ (حسّان) المقام ولم تزل   تليني وتسري منك لي النفحاتُ
(الشوقيات : ١/٩٢)

٣ ـ هاتوا (ابن ساعدةٍ) يؤبّن قاسماً   وخذوا المراثي فيه من (بشار)
(الشوقيات ٣/٨٦)

٤ ـ وأنا الفتى الطائي فيك وهذه   كلمي هززتُ بها (أبا اسحاق)
(الشوقيات ٢/٩٤)

٥ ـ ان الذي قد ردّها وأعادها   في بردتيك أعاد في (البحتري)
(الشوقيات ١/١٧٢)

٦ ـ الشوقيات ١ ٩٢

ومن كان مثلي (أحمد الوقت) لم تجُز
عليه ولو من مثلك الصـــدقاتُ
ولي دُرر الأخلاق في المدح والهوى   وللمتنبي درةٌ وحصاةُ

وهو لو أدرك عهد الخديوي اسماعيل لقال فيه شعراً يُنسي العرب المتنبي وسيف الدولة [١]

ولو مشت بي الليالي تحت موكبه   غادرتُ (أحمد) نسياً و(ابن حمدانا)

والدولة الاسلامية في الشرق والغرب لم تخرج كثيراً من نظرائه وأمثاله [٢] ، وقد صارت إليه اليوم دولة الشعر [٣] ، وأصبح فيها واحد الشعراء [٤] يتغنى الناس بشعره في كل مكان [٥]

إن شوقي الذي يُدل بشعره هذا الإدلال كله ، يتحدى الشعراء القدامى حين يعارض أخلد آثارهم ، ليثبت لمعاصريه مقدرته وتفوقه ،

---

١ ـ الشوقيات ٣٤٨/١

٢ ـ لم تُكثر (الحمراء) من نظرائه   نسلاً ولا (بغداد) من أمثاله
(الشوقيات : ٢٠٧/١)

٣ ـ لي دولة الشعر دون العصر وائلةً   مفاخري حكمي فيها وأمثالي
(الشوقيات ١٣٦/٣)

٤ ـ ياواحد الإسلام غير مدافع   أنا في زمانك واحد الأشعار
الشوقيات ٤٦/٢)

٥ ـ رواة قصائدي فاعجب لشعرٍ   بكل محلّةٍ يرويه خلق
(الشوقيات ٨٨/٢)

فالتحدي إذاً عامل ثالث من عوامل نزعة التقليد عند شوقي ، وهو نفسه الذي دلّنا على هذا العامل عندما ذكره صراحة في مقدمة أثره الأندلسي الضخم (دول العرب وعظماء الاسلام) فقال [١]

دعا التحدّي خاطري فلبّا يحذو مثالَ السلف الألِبّا

وثمة عامل أخير خاص بالأندلس ، نستطيع أن نضيفه إلى هذه العوامل الثلاثة العامة، وإن كنا نعترف بأنه لا يكشف السر في اقتصار شوقي على القوالب المستعارة كلما ثارت طبيعته الشعرية في المنفى، وهذا العامل نفسيٌّ يستمد مقوماته من طبيعة الإنسان في الغربة ، فالأديب المغترب ميال في أكثر أحواله الى الكتابة باللغة (الكلاسيكية) ، نزّاع إلى الألحان القديمة التي كان يألفها في وطنه ، والأدب العربي ، بآثاره القديمة وقوالبها ، وطن عقلي وقومي يحن إليه الأديب العربي في كل مكان ، فإذا تغرّب زادته الغربة حنيناً إليه ، وتمسكاً به ، وبهذا تكون معارضة تلك الآثار القديمة ومحاكاتها مظهراً من مظاهر الحنين إلى الوطن والرغبة في الانفلات من وحشة الغربة وأجوائها .

أما سبب اختيار شوقي هذه الآثار دون غيرها ليعارضها في منفاه، فمرده إلى تلك الحال المتشابهة التي كانت تجمعه بمثله الأعلى على غير ميعاد، وكذلك التقى شوقي بابن زيدون والمتنبي والبحتري، وهؤلاء إخوته في الألم والغربة والبعد عن الأحبة وفقد الأم والطواف بأطلال القصور والآثار الخالدة .

---

١ ـ دول العرب وعظماء الاسلام : ص ٧

والذي نلاحظه أن (أدب المعارضة) عند شوقي أدى به إلى نتيجة خطيرة ، فقد دفعه تقليد القدامى ومحاكاة الفحول السابقين إلى تجويد لغته والتدقيق فيها ، وجعله يُعنى بالموسيقى واللفظ ، والدوي والجلبة ، فإذا حظ صياغته من الفخامة عظيم ، وقد أشرنا في مواضع كثيرة من دراسة أندلسياته إلى قوة السبك وفخامة الصياغة وإحكامها ، ولكن الشاعر المنفي الذي يكاد يحاذي بأسلوبه وصياغته أكتاف الفحول الذين يعارضهم ، في فترات كثيرة من تقليده إياهم ، لم يستطع أن يبلغ هذا المدى في معينه الانفعالي والفكري ، فظل يظلع على آثارهم دون أن يلحق بهم ، ولا نظلم شوقي ، فبين من يسابقهم ثلاثة أعلام كبار ، هم في دنيا أدبنا العربي من خير ماجادت به العبقرية العربية في الشعر ، ان لم نقل خير ما أثمرت في المشرق والمغرب !

أما خصائص أندلسيات شوقي من حيث مادتها ومضمونها فأولها فقر العنصر الانفعالي فيها ، وقد رأينا الدفقات العاطفية العنيفة قليلة قصيرة الأمد ، لاتسندها تجربة شعرية منظمة ، فهي مشوشة ، مرتبكة ضعيفة الاتساق ، تتموج لحظة ثم لاتلبث أن تبوخ وتنطفىء ، عاجزة عن الاستمرار ، وكأن شوقي كان يحس بانهيار دفقته العاطفية فيحاول أن ينفخ فيها ، ولكنها لاتستجيب ، فيحاول أن يستر فتورها المفاجيء بالتفخيم والتهويل والألوان والموسيقى ، ويتأنق في ذلك تأنقاً

ملموساً[١]. من أجل هذا كنا نقف عند مقطوعات قصيرة تتخلل الأندلسيات ونشير إلى الفورة الوجدانية المفاجئة فيها ، ولو أن نفَس شوقي اتصل واتّسق لأنقذ أدبه في المنفى من الهزال الانفعالي الذي أشرنا إليه في مواطن متفرقة من دراستنا للأندلسيات[٢] ؛ وقد يكون من العبث أن نطلب من شوقي عاطفة حادة وانفعالاً متسقاً ، وهو الشاعر الناعم الناشيء في أسرة كبيرة غنية ، يغمره الترف وتتناقله الأيدي بالعناية والدلال ، ويرعاه البيت المالك، فينام عنه الدهر، وتضل عنه المصائب، ولا يعرف مرارة الألم وقسوته قبل منفاه .

والعنصر التأملي في أندلسيات شوقي فقير أيضاً ، ذلك أن الشاعر وقف أمام الآثار العربية في الأندلس ليصور بشاعريته ما ترى عيناه، ولم يسعفه قلبه بالخلجات والخفقات، ولم تستطع نظراته أن تنفذ في أغوار الماضي، وأن تتملى أسرار التاريخ وقصة الحياة ، فإذا هو واصف وضعي Positif لا تزدحم على ريشته الأحلام الفنية ، ولا تلتمع في عينيه نظرات متأملة نفاذة ، ومن هنا جاءت صور شوقي جافة باهتة ، ليس وراءها القلب الإنساني أو المخلوق الإنساني بقلبه الحي وعينه الحالمة ، وبهذا نستطيع أن نفسر عزوف شوقي عن حاضر الأطلال الأندلسية

١ ـ أشار إلى هذه الخاصة المهمة في شعر شوقي كله الأستاذ اسماعيل مظهر في بحثه عن (أحمد شوقي ودلالة شعره على نفسيته) ،انظر كتابه : تاريخ الفكر العربي : ص ١٤٨

٢ ـ انظر مثلا ما تقدم : ص ١١٠ ، ١٢٠

لينهل من التاريخ ويصدر عنه ، وقد أدى به ذلك إلى إفقار **العنصر الواقعي المحلي** في أندلسياته ، وأصبح التاريخ هو المعين الأول لوحي شاعريته في الأندلس ، فغطى الماضي أمام عينيه صفحة الحاضر ، وإذا هو يطوف في الأندلس ليصف أشياء لم يعد لها وجود هناك ، وإنما نبشها شوقي من بطون الكتب وأعادها بخياله الى أمكنتها من أندلس التاريخ العربية ، ثم راح يدعو شاعريته إلى وصفها وتصويرها وهكذا عاد (مصحف عثمان) إلى مكانه من محراب المسجد الجامع في قرطبة ، كما عاد منبر هذا المسجد ليعتلي ذروته من جديد خطيب الأندلس الكبير القاضي منذر بن سعيد .. وهكذا استطاع شوقي أيضاً أن ينقل (وادي الطلح) من اشبيلية إلى برشلونة ، ليصفه لنا ويناجي ذلك العصفور النائح فيه وهو لما يغادر برشلونة

وقد يكون من الطبيعي جداً أن يتضخَّم **العنصر التاريخي** في أندلسيات شوقي لأنها نتاج حياة الشاعر في تلك الأجواء العابقة بالتاريخ العربي وأمجاده ، ولكن الذي ندهش له أن نجد التاريخ يطغى على حاضر الأندلس حتى ليكاد يمحو أثر الواقعية المحلية في الأندلسيات.. وقد نحتج لشوقي هنا بغنى الماضي وفقر الحاضر ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل[1] ، غير أن مثل هذه الحجة لا تكفي لتبديد الرأي الذي أظهرتنا هذه الدراسة عليه وهو أن الشاعر المنفي استوحى في أندلسياته

---

١ ـ انظر ماتقدم ص ١٢٩ ، ١٣٥

تاريخ الأندلس العربي من حيث أمكنه أن يهتدي إليه في بطون الكتب، ولم يستوح الأندلس الحاضرة بأرضها وآثارها وأطلالها .. وهذا رأي بالغ الخطر لأن له ما بعده ، وهو أن شوقي كان يستطيع أن يبكي الأندلس بمثل ما بكاها لو أنه ظل في برشلونة مقيماً ولم يغادرها إلى جنوبي اسبانيا ، وأنه كان يستطيع أن يبكي المجد العربي وينوح على زواله من الأندلس بمثل ما رأينا في أندلسياته لو أنه لم يضع قدماً على أرض أندلسية أو اسبانية ! لو بقي الشاعر في مصر وأتيح له من الراحة والفراغ مثل ما وجد في برشلونة ، وانصرف إلى ما يقوله المقري وغيره من مؤرخي الأندلس عنها لأعطانا دون ريب قصائد تاريخية تصور بأسلوب وصفي بعيد عن الدقة غني بالتهويل والتفخيم ، تلك المشاهد الأندلسية التي نقرؤها في أندلسياته ، أو قريباً منها !

نحن نقرر هذا كله ولكننا لا نغفل عن حقيقة صارخة وهي أنّ اسبانيا — وإذا أردنا الدقة قلنا « برشلونة » — هي التي هدت الشاعر المنفي إلى طريق المجد العربي ، ولم تكن شاعريته لتسلكه من قبل ، فقد كان شوقي يعيش في برشلونة إلى جوار تلك الأرض الأندلسية التي رواها أجداده العرب بدمائهم ، وعمروها بجدهم وعبقريتهم ، وتركوا على أرضها آثاراً ناطقة بأمجادهم ، لا تغيب عنها الشمس[1] ،

١ ـ راجع مقالاتنا المتسلسلة التي وصفنا فيها زيارتنا للآثار العربية في الأندلس بعنوان (آثارنا لا تغيب عنها الشمس) في مجلة الشهاب الدمشقية (الأعداد : ٤٦-٥٢)

وليس بعيداً أن يتنسم شوقي ، وهو في جوار هذا المجد العربي الخالد، أنفاساً عابقة بالطيب ، تثير شاعريته وتدفعه إلى قراءة التاريخ العربي في الأندلس بنهم وشوق ، ليختزن في مخيلته من سطوره وصفحاته ما يعينه على القول إذا انصرف إلى الشعر

أما الأفكار الأساسية التي كانت تشغل شاعرية شوقي في منفاه وتؤلف **العنصر الفكري** في أندلسياته ففي مقدمتها فكرة (العودة إلى الوطن[1]) ، ذلك أن إحساس شوقي بآلام الغربة عن مصر كان شديداً ، والنفي تجربة عنيفة أصاب بها الدهرُ قلب شوقي بعد أن غبر الشاعر سبعاً وأربعين سنة لا يعرف من الحياة إلا طرفها الباسم الهانيء المترف ، فلما اكفهر له وجهها الضاحك . وبُدّل من لين العيش وخفضه في مصر مشقةً وعنتاً في المنفى ، وأُلقى في ذلك الطرف النائي من الأرض ، بعيداً عن أمه وجاهه و (كرمته) وأصحابه ، ذاق في نفيه عذاب جهنم ، كما يقول ذلك بحق[2] ، ولهذا نجد أدبه في المنفى **يفيض بالكآبة والحزن** ، ولا ينسى المحنة والنفي ، ولا يتسع لابتسامة أمل أو ضحكة سلوان ، فهو أدب **الحنين الدائم** إلى مصر والشوق إلى وادي النيل ، وهذا الحنين هو الذي جعل مصر تحتل أكبر قسم في

---

١ ـ انظر مقالة (شوقي في الأندلس) لأحمد الشايب في كتابه (أبحاث ومقالات) ص ٤١

٢ ـ يقول شوقي (الشوقيات ٢/٢٣٥)

لولا عوادي النفي أو عقباته والنفي حال من عذاب جهنّم

الأندلسيات وجعل شوقي يفكر بمصر أكثر من تفكيره بالأندلس.

ومن الأفكار الشاغلة في أدب المنفى فكرة (الاعتبار بالماضي والاتعاظ بأحداثه) وشوقي يصدرهنا عن ثقافته التاريخية وعن طبيعة الأرض التي عاش عليها مدة نفيه والتي تقص كل بقعة من بقاعها طرفاً من حديث المجد العربي الزائل ، وكذلك حاول شوقي أن يستخلص من تاريخ العرب في الأندلس ومن الآثار التي تركوها وراءهم ولم يمحها الفناء ، دروساً وعظات لشباب الشرق ، ولكن محاولة الشاعر المنفي ظلت ضيقة الأفق قصيرة اليد ، فلم تستغل تصوير نكبة العرب في الأندلس ، لترسم لأحفادهم اليوم عبرة الماضي ، وتدعوهم إلى نبذ التفرق والتخاذل ، وتنفخ فيهم روح الوحدة والتضامن ، في سبيل بقائهم وعزّتهم ، وحفظ بلادهم وأوطانهم من جشع المستعمرين وطمعهم في (أندلس جديدة) يسلبونها كلّ يوم ! لقد كان همّ شوقي وهو يصور فاجعة العرب بفردوسهم السليب أن يرسم لوحات أنيقة فخمة ترضي ميله إلى إظهار براعته الشعرية ورغبته في التهويل والمبالغة ولو أنه آثر هاهنا البساطة والوضوح والدقة لكان تأثير دروسه وعظاته أعظم وأجدى .

ومن الأفكار التي يكررها شوقي في أندلسياته (الفكرة الأخلاقية) ذلك أن الشاعر يؤمن بأن الأمم بأخلاقها ، بقاؤها ببقائها وذهابها بذهابها ، وقد لاحظ الرافعي أن شوقي لا يمل تكرار

هذه الفكرة في شعره[١] ، وقد ردها في السينية والبائية كما رأينا من قبل[٢] ، وعرضها في الموشحة بثوب فضفاض جديد ، وهو يصف دولة عبد الرحمن الداخل[٣]

بُنيت من خُلُق دولتـه ... قد يشيد الدولَ الشُمَّ الخُلُق

وإذا الأخلاق كانت سلّما ... نالت النجم يدُ الملتمسِ

فارق فيها ترَقَّ أسباب السما ... وعلى ناصية الشمس اجلِسِ

ويبدو أن ألم شوقي من موقف بعض أصحابه المشين منه ، وانصرافهم عنه عند محنته وتنكّرهم له وتناسيهم أفضاله ، كان يزيده ايماناً بفكرته الأخلاقية هذه ، ولعله أشار إلى ذلك كله في البائية عندما حمد المنفى وأثنى عليه لأنه أراحه من رؤية وجوه هؤلاء الغادرين ، ثم أنهى حملته عليهم بقوله[٤]

وليس بعامرٍ بنيان قومٍ ... إذا أخلاقهم كانت خرابا

هذه هي أهم الأفكار الأساسية في الأندلسيات ، وبذلك نعلم أن السلطان العثماني والخديوي ليس لهما في أدب المنفى أيّ ذكر ، وسكوت شوقي عنهما بعد أن كان شعره قبل المنفى يكاد يكون

---

١ ـ ذكرى الشاعرين ٢/٤٩١

٢ ـ انظر ماتقدم : ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٥٦

٣ ـ الشوقيات : ٢/٢٢١

٤ ـ المصدر السابق ١/٥٥

وقفاً عليهما ظاهرة لها مغزاها البعيد لأنها تشف لنا عن معنى من معاني التطور الذي أصاب الشاعر في منفاه ، وسنفصّل الكلام عليه في الفصل التالي.. ولكننا اذا كنا نحمد للشاعر انصرافه عن السلطان والخديوي وسكوته عن ذكرهما فإننا لا نرضى بسكوته الغريب عن الأجنبي المحتل الباغي الذي أزعجه عن وطنه وأسلمه إلى الغربة والنفي والعذاب ، ولقد رأينا شوقي كلما عرض إلى موضوع نفيه ألقى التبعة على الدهر والأقدار ونكبات الليالي ، ويحار القارىء من إبهام الشاعر وتردده ، ولولا إشارة أو إشارتان عابرتان في (قناة السويس) و(السينية) لما استطاع أحد أن يهتدي من أندلسياته إلى معرفة الذين أمروا بنفي الشاعر عن وطنه !

كنا نأمل أن نجد في شعر المنفى شكوى ثائرة صريحة من الظلم الذي أخرج الشاعر من وطنه في أحلك الأيام ورمى به في لجة الخطر وكوارث الحرب ، وكنا نرجو أن نرى في الأندلسيات غضبة مريرة تثير ضمير الانسانية على المحتل الغاشم ، وتفضح جرائمه ومطامعه ، ولكن الشاعر المنفي آثر الصمت ، واكتفى بصرخة أو صرختين هامستين ، واستسلم بعدهما إلى ملله وكآبته وأحزانه !

قد نستطيع أن نجد لشوقي هنا بعض العذر ، فهو ينتظر أبداً ساعة الخلاص من عذاب النفي ، وهو يأمل دائماً عودة قريبة إلى مصر لا تزعجه بعدها السلطة المحتلة من جديد عنها ، وهو في منفاه شيخ

يدرج نحو الخمسين ، فليس في طاقته احتمال انتقام السلطات في مصر بمنعها المال عنه ، أو برفضها السماح له بالعودة ، ثم إن شوقه إلى أمه المريضة في حلوان يدفعه إلى المسالمة وانتظار الفرج .. والشاعر بعدُ ذو نفسية هادئة لا تميل إلى العنف والثورة ، وتبتغي بطبيعتها السلامة والرفق والعافية[1] .. ولكن هذه الأعذار كلها لا تستطيع أن تسد الثغرة . فذلك نقص ملحوظ في أندلسيات شوقي يؤكد ما قلناه عن فقر العنصر الانفعالي وهُزاله فيها ، ويكاد يطبع أدب المنفى بطابع **اللين والرفق والاستسلام !**

وآخر ما نلاحظه من خصائص أدب شوقي في المنفى قلة المحصول الأدبي ، فقد مكث شوقي في برشلونة أكثر من ثلاث سنوات ،أسير الملل والكآبة والفراغ والبطالة ،كما رأينا[2] ، ثم ننظر في إنتاج هذه المرحلة فنجد قليلاً من الشعر الجيد وكثيراً من النظم التعليمي، وهذا الشعر الجيد لا يتجاوز قصيدتين : النونية والميمية ليس غيرهما ! وإذا عرفنا أن بديهة شوقي مطواعة وأن باستطاعته أن ينظم القصيدة

---

١ ـ شوقي من أنصار الرفق واللين وأعداء العنف وهو القائل

اطلب الحقّ برفقٍ تُحمدِ   طالبُ الحق بعنف معتدِ

اطلبوا الحق برفقٍ   واجعلوا الواجب دابا

(الشوقيات : ٤/٢٨ و ٢/٨٦)

٢ ـ انظر ماتقدم ص٨٣

الرائعة في جلسة واحدة[١]، وأن ينظم عشرة أو عشرين بيتاً في لمحة بصر[٢] كما يذكر لنا عارفوه ، أدركنا أن سنوات إقامته في برشلونة كانت فترة قحط وجفاف في شاعريته ، فقد هزلت طاقته الشعرية ، وأجدبت قريحته ، فراح ينفق أيامه الطويلة في نظم أرجوزة « دول العرب وعظماء الاسلام » !

لو أننا أسقطنا هذه المنظومة التعليمية من أندلسيات شوقي لما بقي لدينا من الشعر إلا حفنة يسيرة لاتبلغ أربعمائة بيت ، نظمها الشاعر المنفي في أكثر من أربع سنوات ! ونسمع بعد هذا من يتحدث عن خصب شاعرية شوقي في منفاه ، ويقارنه بخصب قريحة فيكتور هوغو ومحمود سامي البارودي في منفاهما . ويعد ذلك من مزايا شوقي التي استحق بها إمارة الشعراء في عصره ! يقول حافظ ابراهيم مخاطباً شوقي في مهرجان مبايعته بالإمارة بالاوبرا عام ١٩٢٧ [٣]

نُفيتَ فلم تجزع ولم تك ضارعاً ومن ترمِهِ الأيام يجزع ويضرعِ

---

١ ـ كما فعل قبيل حفلة تكريمه في المجمع العلمي العربي بدمشق ، فقد أبطل القصيدة التي كان نظمها لذلك ، لأنه ما ارتضاها ، ونظم في الحال غيرها ، بمحضر من أصحابه في دار أحد الوجهاء ، وأجمع العارفون ـ كما يقول الأستاذ محمد كرد علي ـ أنه لم تمدح دمشق بمثل هذا اللسان : راجع مقالته عن (حياة أحمد شوقي) في ذكرى الشاعرين : ٢/٤٣٥

٢ ـ كما يقول ابنه حسين شوقي : أبي شوقي : ص ١٦١

٣ ـ ديوان حافظ ابراهيم : ١/١٢٧

وأخصبت في المنفى ، وما كنت مُجدباً
وفي النفي خِصبُ العبقريّ السَّمَيْذَعِ[1]
لقد زاد (هوغو) فيه خِصبَ قريحةٍ
وآب إلى أوطانه جدَّ مُمْرِعِ
وأدرك (سامي) بالجزيرة غايةً
إليها ملوكُ القول لم تتطلّعِ

غير أن دراستنا هذه لأندلسيات شوقي لا يمكنها أن تؤيد قول حافظ ، فقد مكث محمود سامي البارودي في جزيرة سيلان سبعة عشر عاماً (١٨٨٣ ـ ١٩٠٠) وأفنى في منفاه كهولته بين تباريح وعبرات ولوعة وحنين ، ونظم شعراً كثيراً حظه من القوة والثورة والنضال مثل حظه من العاطفة والوجدان والألم ، ويعد النقاد شعر منفاه من أكثر انتاجه الأدبي ارتباطاً بحياته[2] ، وأما فيكتور هوغو فقدكانت السنوات الثلاث التي قضاها في منفاه بجزيرة جرزى Jersey (١٨٥٢ ـ ١٨٥٥) تمتاز بالخصب حقاً ، فقد استطاع الشاعر الفرنسي المنفي أن ينظم ديوان (العقوبات Châtiments) وقسماً ضخماً من ديوان (تأملات Contemplations) ، وأن ينال لقب (شاعر الحرية)

---

١ — السميذع : السيد الكريم

٢ — انظر حديثاً عن أدب البارودي في المنفى في كتاب(أدب وتاريخ) للدكتور محمد صبري ص ٥٥ — ٦٨

عندالفرنسيين وغيرهم ، بقصائده الكثيرة التي مجّد فيها الحرية،وصور قسوة الطغاة وآلام المظلومين ، وتحدّث عن عزم الشعب على السير نحو النور ، وانتصار الخير على الشر[١] .. أما شوقي فلم يهتد إلى ذلك كله ، أو هو اهتدى إلى أول الطريق عندما قال[٢]

أحرامٌ على بلابله الدوحُ   حلالٌ للطير من كل جنسِ
كلُّ دارٍ أحقّ بالأهل إلاّ   في خبيث من المذاهب رِجسِ

فهذه الصرخة الغاضبة كوةٌ كان يستطيع شوقي أن يُطل منها على آفاق للقول فسيحة وخصبة وموحية ، ولكن الشاعر المنفي آثر أن يرتد عنها وأن يعود إلى هدوئه وصمته !

من الغريب حقاً أن يدرك شوقي أن « الشعر ابن أبوين التاريخ والطبيعة[٣] »، وأن يقضي خمس سنوات في اسبانيا، في أحضان الطبيعة الأندلسية الفاتنة ، وفوق التربة المجبولة بدماء التاريخ العربي المجيد ، ثم لا يستطيع بعد ذلك ، وهو المعروف بخصبه وجودة قريحته ، أن

---

١ — امتد نفي هوغو إلى عام ١٨٧٠، وقد انتقل من جرزي الى جزيرة اخرى هي جرنيزى Guernesey ورفض كل عفو عنه، ولم يعد إلى وطنه الا بعد انهيار امبراطورية نابوليون الثالث (الصغير كما يسميه هوغو) وقد ظل الشاعر الفرنسي المنفي يقدم في منفاه أخصب انتاج وأقواه .

٢ — الشوقيات : ٢/٥٤ — ٥٥

٣ — المصدر السابق ١/٣٠٩

يقدم للأدب العربي الحديث غير هذه الصفحات القليلة !.

ويقف الدكتور شوقي ضيف في دراسته لشوقي عند هذه الظاهرة العجيبة في حياة الشاعر الأدبية ، ويحاول أن يلتمس لها تعليلاً ، فينتهي إلى أن شوقي لم يكن شاعراً لنفسه وحياته الخاصة ، بل كان دائماً شاعراً لغيره ، يهبه فنه وشعره ، فلما نفي إلى اسبانيا ، وفقد بعد عزل عباس ذلك (الغير) الذي كان يحبوه شعره ، ظلّ طوال مدة نفيه في تيهٍ من الحيرة ، لا يدرى بمن يربط شعره ، ولذلك قلَّ شعره هناك قلة شديدة[1] !

★ ★

الفصل الثالث

تأثير المنفى في شاعرية شوقي

— ١ —

تمتاز أندلسيات شوقي من سائر شعره بطعم خاص ، ذلك أن فيها أثراً واضح السمات للمخاض النفسي العنيف الذي عاناه الشاعر في منفاه ودفعه إلى تطوير كثير من مفاهيمه واتجاهاته ، وقد خلّف المنفى في شخصية شوقي وفنه منعطفات بارزة غيّرت خطوط سلوكه ، ومن زوايا هذه المنعطفات تشع القيمة الحقيقية لأندلسيات شوقي .

لرصد هذه المنعطفات وتحديد خطوطها لا بد من دراسة أدب شوقي قبل المنفى وأدبه بعده دراسة مقارنة وموازنة ، وبذلك يتم لنا ربط أندلسيات شوقي بإنتاجه الأدبي كله ، ونلمس بأيدينا أثر المنفى في تطوير عقيدة شوقي الشعرية .

يجب أن نصغي هنا إلى اعتراض للدكتور طه حسين يحذرنا فيه من أن تخدعنا (الشخصية المصنوعة) التي يخفي بها الأدباء

شخصيتهم الأولى التي فطرها الله ، أو أن « نغلو في اتخاذ ما يصدر عن هؤلاء الشعراء من الشعر مرآة لنفوسهم دون أن نقدر تأثير التكلف والتصنع والتقليد وتملّق الجمهور والأفراد في هذه المرآة[١] »؛ وطه حسين يعلن في صراحة أنه لا يعرف لشوقي عقيدة صريحة في الشعر ، وإنما يتأثر شوقي بالساعة التي يتهيأ فيها لقول الشعر ، وبالظرف الذي يقرض فيه الشعر ليس غير [٢] !

سنحاول جهدنا إذاً — ونحن ندرس أثر الأندلس في تطور شخصية شوقي وفنه — أن نبعد كل تأثير يجره التكلف والتصنع والتقليد ، أو يفرضه تملّق الجمهور والأفراد ، لنستخلص بعد هذا كله ما يبقى للمنفى وحده من عوامل ،وهي الزمن والألم والحرية والمجد ؛ والحق أننا نجد في أندلسيات شوقي ـ قبل أن تتخطاها إلى سائر شعره ـ البذور الأولى لتطور عميق الدلالة في شخصية الشاعر ومذهبه الفني ، وسنرى كيف نبتت هذه البذور وأزهرت في شعره بعد المنفى

— ٢ —

أول تلك المنعطفات في شاعرية شوقي أنه كان قبل المنفى شاعر القصر فأصبح بعده شاعر الشعب .

---

١ — (حافظ وشوقي) لطه حسين ص ١٦

٢ — المصدر السابق : ١٣ ـ ١٤

ولد شوقي بباب قصور الأسرة العلوية ، ونشأ نشأة ارستقراطية مترفة ، واحتضنه القصر منذ عرف صاحبه نبوغه ، وأنفق عليه حتى قويت حنجرة البلبل الغريد ، فأرسل غناءه في تمجيد ولي نعمته ، وأصبح تغريد الشاعر موقوفاً على القصر ، مرهوناً بسياسته ورغباته ، وأصبح الشاعر لايرى أحداً ، غير القصر وصاحبه ، فهو يمدح الأمير في كل مناسبة ، ويضفي عليه هالات التعظيم والقداسة ، ويُغالي في تمجيده ، حتى تشرق الأرض من أنوار ذاته ، وتتيه عجباً بأعظم مسلم بعد الخليفة العثماني [1]

والأرض من أنوار ذاتك أشرقت   لا تُخلها أبداً من الأنوار
هزت مناكبها بأعظم مسلمٍ   في الناس بعد خليفة المختار

وليس غريباً بعد هذا أن يُناجي ثرى مصر نعلي الخديوي عباس ليستوهبهما الخصب [2]

وقيل ابن رب النيل فافترت القُرى
وناجى الثرى نعليك يستوهب الخصبا

ولم يكن شوقي عند نفسه ليؤمن دون ريب بما في هذه الصور (العتيقة) من مبالغات ، غير أن شاعر القصر ملزم فيما يبدو بنشر هذه الصور لتعلق بها أعين الشعب ، وتضمن لمالك مصر غفلة شعبه عن مباذله ،

---

١ — الشوقيات ١/١٤٤

٢ — الشوقيات (الطبعة الاولى القديمة) ص ٥٦

ونومه عما يجري وراء جدران القصور من حفلات عابثة راقصة لا تنام الليل ! فهناك في قصر عابدين ، تموج حلبة الرقص بالرجال والنساء ، والرجال ليوث والنساء ظباء ،وما أشهى الصيد إذا مالت الرؤوس على الصدور ،وبدت النحور والنهود،والتهبت الخدود،ووهت الخصور[1] :

الليوث مائلةٌ	والظباء تنسربُ
الرؤوس مائلةٌ	في الصدور تحتجب
والنحور قائمةٌ	قاعد بها الوصب
والنهود هامدةٌ	والخدود تلتهب
والخصور واهيةٌ	بالبنان تنجذب

وطاف السقاة بأكواب الخمرة على الجموع المتلاحمة ، وقد [٢]

حفَّ كأسَها الحببُ	فهي فضةٌ ذهبُ

والشاعر واحد من هذه الجموع اللاهية ، ناعم البال ، هانيء العيش، كثير الزهو بكونه شاعر العزيز ، وليس بالقليل عنده هذا اللقب[٢] :

شاعر العزيز وما	بالقليل ذا اللقبُ

غير أن شوقي لم يكن في القصر شاعر العزيز ليس غير ، بل كان ـ كما يقول العقاد[٣] ـ « أشبه بملحق أدبي في بلاط الأمير »،ولهذا كانت

---

١ — الشوقيات ٢/٩ — ١٠

٢ — الشوقيات : ٢/٨

٣ — الديوان : ١/٥

الصحف المتصلة بالقصر تغمره بفيض من الثناء والتقريظ ، وتسميه منذ ذلك الحين بأمير الشعراء [١]، وكأن من حق شاعر الأمراء أن يحمل لواء الإمارة بين الشعراء !

وتأثر شوقي بأخلاق القصر ، فنشأ مغرماً بالحياة ومتعها ولذائذها، وشغله الأمير بذهبه وما أفاض به عليه من نعمة وترف، فلم ير الشاعر آلام الشعب الرابض في البؤس والاحتلال ، بل رأى مايراه الأمير، ونظر إلى كل شيء بمنظاره ، وراح يغنّيه ماشاء من الألحان ، حتى أصبح كلام شوقي في وقت ما لسان حال القصر ، أو كلاماً « شبيهاً بالرسمي » كما قال بعضهم [٢] ، واستحال الشاعر إلى رجل من الحاشية ، إلى موظف حريص على أن ينال رضى سيده ، يغريه مايجنية من وراء ذلك من مجد موهوم ، وثروة عريضة أغنته وسهلت له سبيل العيش الناعم الخفض [٣] ! وليس عجيباً بعد هذا كله أن نقرأ شعر شوقي قبل المنفى فلا نكاد نجد فيه ظلاً لشخصية الشاعر، حتى لنحكم ـ مع الدكتور شوقي ضيف [٤] ـ بأن شوقي ضعيف الإحساس بنفسه في شعره ،

---

١ — ذكرى الشاعرين : ص ٣٦٥ و ٤١٣

٢ — هو الاستاذ أحمد لطفي السيد : انظر (حافظ وشوقي) لحسن كامل الصيرفي : ٤٢

٣ — يشير الامير شكيب أرسلان إلى ماجناه شوقي من عباس : (شوقي او صداقة أربعين سنة : ص ٢٦)

٤ — شوقي شاعر العصر الحديث : ص ١٦١

يغني دائماً غيره ، وقد كان هذا «الغير» قبل المنفى هو الخديوي ...

وجاءت الحرب العالمية الأولى ، وأيقظ عزلُ عباس الشاعر من أحلامه ، فإذا أنصار الأمير مبعدون مشتتون ، وشوقي أحدهم يأخذ طريقه إلى منفاه ، وقد انكشف لعينيه زيف الجاه وغدر الأصحاب ، وبدأ يستقبل الغربة والآلام والأحزان في أحلك الأيام وأقساها .

لقد كان المنفى أكبر تجربة مرت على شوقي في حياته ، فهزّت أعماق ضميره ، وأظهرته على أنه كان يعيش في مصر ضائعاً وراء مجد سرابي تافه ، يبيع موهبته وفنه لأمير صغير ، ويسخّر في سبيل إرضائه عبقريته ، ويحد من أجله آفاق شاعريته ، ويكبّل في سبيل شهواته حريته ، وهو في موهبته وعبقريته وشعره - لو عرف حقيقة مكانه - أعظم من ذلك الأمير شأناً ، وأخلد منه على التاريخ بقاءً ، وأطيب منه ذكراً ... ومن هو أمير شوقي ؟ وكيف يرجو الشاعر أن يجد في عباس ماوجده المتنبي في سيف الدولة [١] ، والأمير الحمداني بعيد الهمة في الأدب والسياسة والحرب ، وهو بذلك يذكي نار شاعرية المتنبي ، ويمهد له السبيل إلى التفوق والنبوغ ؛ أما عباس فلم يكن بعيد الهمة في شيء ، فهو يؤثر السلامة والراحة ، والعكوف على ثروته الخاصة ينميها ويجمعها [٢]

١ — الأستاذ مصطفى صادق الرافعي يرى أن شوقي هدية عباس لمصر ، وأن ماأصابه المتنبي من سيف الدولة مما ابتعث قريحته وراش أجنحته أصاب شوقي من الخديوي عباس اكثر منه ... الخ (ذكرى الشاعرين : ٤٧٤)

٢ — (حافظ وشوقي) لطه حسين : ٢١٣ — ٢١٤

ثم هو « لا يعرف إلا نفسه ، وأن يرد كل شيء إلى نفسه ، ويريد أن يمدحه الكل وأن يعبده الكل ، ويرى واجباً أن يكون الكل له عبيداً[1] ».

لقد كان القصر أغلالاً للعبودية ترسف فيها ربة شعر شوقي ، فإذا شاءت هذه أن تنطقه بالغزل الحيّ – مثلاً – تجهم وجه القصر ، وأبى أن يقول شاعره غزلاً صادق العاطفة ، لأنه يتحدث عن العذارى اللواتي يغرهن الثناء !... وإذا شاءت ربة شعره أن تُنطقه بالرثاء الحي ، إثر وفاة صديقه الزعيم مصطفى كامل ، تجهم القصر واضطر شاعره الى أن يرثي في زعيم مصر مجرد صديق عادي !.. واذا نشبت المعركة بين أنصار السفور وأنصار الحجاب ، وأرادت ربة شعره أن تقول كلمتها ، تجهم القصر واضطرب موقف الشاعر ، وتعثّر لسانه بالأغلال فما يدري ما يقول !..

ولا ريب في أن المنفى أتاح لشوقي أن يعود إلى نفسه ، وأن يمتحن ماضيه ، وأن يدرك مبلغ خطئه ، وأن يتهيأ للسير في منعطف جديد ، وقد أسقط عنه عزل أميره عباس تبعات الماضي وأعباءه ، فليحطم النير إذاً ، وليمنح ربة شعره ما حبس عنها من حرية وانطلاق !

وهكذا ودع شوقي ماضيه في العبودية للقصر ، وبدأ السير في طريقه الجديد منذ رفض دعوة الخديوي عباس إلى اللحاق به في فيينا

---

١ – من مقالة الدكتور محمد حسين هيكل (ذكرى الشاعرين : ٤٢٤)

على ظهر غواصة ألمانية[١] ، وآثر البقاء في برشلونة إلى جانب زوجه وأولاده، حتى إذا رجع إلى مصر، واستقبله الشعب الذي أيقظته الثورة وأشعلت النار المقدسة في قلوب شبابه ، أيقن الشاعر أن الشعب هو المادة الحقيقية لمجده ، مجده الحر الطليق ، فسخّر له شاعريته ، ووضع في خدمته موهبته ، ولهذا نجده في أولى قصائده بعد المنفى يخاطب الشعب وآلامه ، ويهز ضمائر الأغنياء ، يدعوهم إلى مواساة الفقراء ، ويهدد التجار المتلاعبين بأقوات الشعب، والمسببين لمحنة غلاء المعيشة ، وينذرهم بغضبة ثائرة من الشعب المستيقظ[٢] ، وينطلق صوت شوقي بعد ذلك في كل مناسبة يتغنى بالحرية ، حرية الشعوب ، ويعلن أن زمان تحكم الفرد في الشعوب قد دال، وهذه صرخته في أيام الملك فؤاد، تزأر منددةً بصلف انكلترا وعنادها في مفاوضتها لمصر[٣]

زمان الفرد يافرعون ولّى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرضٍ على حكم الرعية نازلينا

ويتابع شوقي حملته على « الفرد اللعين » ، ولنصغ إليه وهو يناجي توت عنخ آمون ، ويعلن له في شماتة لاتخفى أنه لو عاد اليوم من حروبه المظفرة ، معقوداً على جبهته الغار ، ويحيط به الدارعون ،

---

١ — أبي شوقي : ص ٨٨

٢ — الشوقيات ١/٥٧ — ٥٨

٣ — المصدر السابق : ١/٣٤٢

وتجر عند أقدامه جماعات الملوك الأسرى ، مصفدين بأغلالهم ، يقدمون الطاعة والخضوع ، لوجد الشعب المصري اليوم غير شعبه بالأمس ، فهو لا يؤخذ بكل هذه المظاهر الكاذبة من المجد الفردي ، ولا يخدع بها ، لأنه أصبح لا يدين بحكم الجبابر ، ولا يخضع لحكومة الفرد [1]

لرَأَيْت جِيلاً غير جيـ	لك بالجبابر لا يدين
ورأيت محكومين قد	نصبوا وردّوا الحاكمين
روح الزمانِ ونظْمُهُ	وسبيلُه في الآخرين
إن الزّمان وأهلَه	فرغا من الفرد اللعين
فاذا رأيت مشايخاً	أو فتيةً لك ساجدين
لاقِ الزّمانَ تجدْهُمُ	عن ركبه متخلّفين
هم في الأواخر مولِداً	وعقولُهم في الأوّلين

وبهذا أعلن شوقي انطلاقه من تحكم الفرد في شاعريته ، وخلّف وراءه القصر وقيوده وأغلاله ، وراح يدعو إلى الحد من سلطة الحاكم الفرد ، وإلى تسليم السلطات إلى الشعب ، ويرفع صوته بتمجيد الدستور وحكم الشورى [2] :

---

١ — الشوقيات ٢/١٢٠

٢ — الشوقيات ٢/٢٠٦

الحقُ أبلجُ والكنانةُ حرَّةٌ والعزُّ للدستور والإكبارُ
الأمرُ شورى لا يعيث مسلّطٌ فيه ولا يطغى به جبارُ

وهو يعلن أن الحكم الدستوري وحده هو جوهرة تاج الملك[1] :

يبنون بالدستور حائط ملكهم
لا بالصفاح ولا على الأرماحِ
وجواهرُ التيجان ما لم تُتَّخذ
من معدن الدستورِ غيرُ صحاحِ

ومثل هذه النغمات — وهي كثيرة في شعره بعد المنفى — لم تكن مألوفة من شوقي قبل المنفى ، ومن أين يجد شاعر القصر السبيل إلى الغناء بها وهو لم يكن يرى غير صاحب التاج والعرش ، فإذا رأى الشعب فلكي يدعوه إلى الالتفاف حول التاج ودعم العرش ، ليتبوأ مكانه في الفريق السعداء ، كأن سعادة الشعب أن يرتفع مليكه وحده إلى السماء[2] !

هل يمد اللهُ لي العيش عسى أن أراكم في الفريق السعداء
وأرى تاجكم فوق السُّها وأرى عرشكم فوق ذُكاء

فاذا أراد شاعر القصر أن يلخّص مطالب مصر وأمانيها لم يجد

---

١ — الشوقيات : ٢/١٩٢
٢ — الشوقيات : ٢/٣

مايقوله على لسان الشعب الرابض في البؤس والاحتلال غير أن مصر تطلب بقاء الخديوي وسلامته ، فإذا بقي لها فكل خير باق[1] !

مولاي طلْبةُ مصر أن تبقى لها
فاذا بقيت فكلُّ خيرٍ باق

وبين مايقوله شاعر القصر هنا وما كان يقوله شاعر الشعب قبل قليل مسافة ما بين الشيء ونقيضه .

— ٣ —

المنعطف الثاني في شاعرية شوقي أنه كان قبل المنفى شاعر القومية العثمانية فأصبح بعده شاعر العروبة .

كان الدم التركي يجري في عروق شوقي، ولهذا نشأ وفي نفسه هوى للأتراك ، فهو — كما يقول ابنه حسين — يحبهم حباً جماً ، ويراهم مجموعة فضائل[2] ، وهو في شعره يمجّدهم ويعدّهم أشرف الأمم[3] ولا يقتصد في الثناء عليهم كلما وجد السبيل إلى ذلك .

وصلة شوقي بالأتراك صلة معقدة ، تشدّها روابط كثيرة غير

---

١ — الشوقيات ٢/٩٣

٢ — أبي شوقي : ص ٢٦

٣ — الشوقيات : ١/٢٨٠ من قصيدة عنوانها « تحية للترك »

الدهر يقظان والأحداث لم تنمِ فما رقادكمُ يا أشرف الأمم

الدم ، أولها الدين ، والاسلام عند شوقي رابطة رحم جامعة [١]

ناهيك بالسبب الشرقي من نسب

وحبذا سبب الاسلام من رحمِ

والمسلمون كلهم عنده عشيرة واحدة [٢]

مقدونيا والمسلمون عشيرةٌ   كيف الخئولة فيك والأعمامُ

والرابطة الشرقية تصل شوقي بالأتراك ، وفي شعره غناء كثير بهذه الصلة الشرقية التي تجمع بين شعوب الشرق ، و « ناهيك بالسبب الشرقي من نسب »

والخلافة رابطة جامعة ، وشوقي في شعره قبل المنفى يبدو شديد الإيمان بالخلافة الاسلامية وحق بني عثمان في تولّيها ، وهو يعد عرش الخليفة العثماني في الآستانة عرش النبي محمد ، كما يقول للخليفة محمد رشاد [٣] :

ومشى الزمانُ إلى سريرك تائباً   خجلاً عليه الذلُّ والإرغام

عرش النبي محمدٍ جنباتُـه   نورٌ ورَفْرَفُه الطهور غمامُ

وهو يرى في الخلافة العثمانية رمزاً لاجتماع كلمة المسلمين ، والمؤسف حقاً أن شوقي لم يكن يؤمن بقدرة العرب على القيام

---

١ – الشوقيات: ٢٨١/١

٢ – الشوقيات : ٢٨٧/١

٣ – الشوقيات : ٢٨٢:١

بشئون الخلافة ، فعندما ألغى مصطفى كمال الخلافة العثمانية ، وأشيع في البلاد العربية أن الشريف حسين يعد نفسه لتولّي الخلافة ، ثارت ثائرة شوقي ، وهاجم الشريف الهاشمي ، واتهمه بالعجز ، وأنكر عليه ثورته على العثمانيين ورماه بخيانة المسلمين [١]

من قائل للمسلمين مقالةً   لم يُوحِها غيرَ النصيحة واحِ
لاتبذلوا بُرد النبيّ لعاجزٍ   عُزُل يدافعُ دونه بالراحِ
بالأمس أوهى المسلمين جراحةً   واليوم مدَّ لهم يدَ الجرّاحِ

ومن الروابط الجامعة أيضاً ارتباط مصر بالأتراك ، ذلك أن المصريين الرازحين تحت وطأة الأجنبي المحتل كانوا يرون في الدولة العثمانية منقذاً لهم ، ويعولون عليها في خلاصهم ، وكثيراً ما كان شوقي يطالب الخليفة العثماني بمد يد العون إلى مصر وخديويها ، كما قال للسلطان عبد الحميد ، عندما أنزل الشاعر المصري ضيفاً عليه في الآستانة [٢]

عاليَ البابِ هز بابُك منّا   فسعينا وفي النفوس مرامُ
نستميحُ الإمام نصراً لمصرٍ   مثلما ينصر الحُسام الحسامُ
فلمصرٍ ـ وأنت بالحُب أدرى ـ   بك ياحامي الحمى استعصامُ
وأرع مصراً ولم تزل خير راع   فلها بالذي أرتك زمامُ

ونستطيع أن نعدّ إقامة الشاعر في تركيا فترات من شبابه من

---

١ — الشوقيات : ١/١٠٨ — ١٠٩

٢ — الشوقيات : ١/٢٩٩ — ٣٠٠

وشائج الصلة بين شوقي والأتراك ، وقد كان الشاعر يلقى في ضيافة الخلفاء العثمانيين من الرعاية والتكريم مايزيده قرباً من الأتراك، ووفاء لهم ، وتعلقاً بهم ، وهياماً بالآستانة « جنة الدنيا[1] » وما حولها من مفاتن الطبيعة

ولقد قابل شوقي إكرام الخلفاء العثمانيين بتمجيدهم في شعره ، ويكفينا هنا أن نبرز الصورة التي يحفظها ديوانه للسلطان عبد الحميد ، وشوقي كان شديد الاعجاب به ، يجل عهد خلافته ، ولا يرى في بُناة المجد نظيراً له ، فقوله وحيٌ ، وفعله إلهام ، ويشبهه بعمر بن الخطاب ويغالي في تصوير بركته ويُمنه على الرعية[2]

إيهِ عبدَ الحميد جلّ زمانٌ   أنت فيه خليفةٌ وإمامُ
مارأت مثل الذي تبتني الـ   أقوام مُجداً ولن يرى الأقوامُ
حكمةٌ حال كلّ هذا التجلي   دونها أن تنالها الأفهام
يسألُ الناسُ عندها الناس هل في الناسِ ذو المقلة التي لا تنامُ
أم منَ الناس بعدُ مَن قولهُ وحـ   ـي كريمٌ وفعلهُ إلهامُ
عمرٌ أنت ، بيد أنك ظلّ   للبرايا وعصمةٌ وسلامُ
ماتتوجت بالخلافةِ حتى   تُوج البائسونَ والأيتامُ

١ — يقول شوقي في وداع الآستانة (الشوقيات : ١/١٨٢)
تجلّد للرحيلِ فما استطاعا   وداعاً جنّة الدنيا وداعا

٢ — الشوقيات ١/٢٩٦—٢٩٧

وسرى الخصب والنماءُ ووافى الـ بشرُ والظلّ والجنى والغمامُ

وبقي شوقي على ولائه لعبد الحميد بعد خلعه، وبكى لسقوطه بالدمع الغزير، وتألم لمصيره، وأجلّه عن شماتة أعدائه[١]، واحتمل مهاجمة دعاة الحرية له من أجل ذلك، كقول ولي الدين يكن، في رده على قصيدة شوقي، من بحرها ورويها، وسخريته من بكائه على سقوط الطاغية وعطفه عليه في محنته[٢]

لمّا أُديلَ عن السريـ ـرِ بكاه عُبّادُ السرير

وعندما أعلن الغازي مصطفى كمال عزل الآستانة ونقل العاصمة منها، راح شوقي يكيل له المديح، ويوازن بينه وبين نابليون، ويفضله على النسر الفرنسي، ويحيي (أنقرة) عاصمته الجديدة، ويمجد دولته العتيدة[٣]:

قم نادِ أنقرةَ وقُل يهنيكِ ملكٌ بنيت على سيوف بنيك

زعموا الفرنسيّ المحجَّل صورةً في حلبة الفرسان من حاميك

النسر سلَّ السيف يبني نفسه وفتاكِ سلَّ حسامه يبنيك

والنسرُ مملوكٌ لسلطان الهوى ووجدتُ نسركِ ليس بالمملوك

يادولة الخُلق التي تاهت على رُكن السماك بركنها المسموك[٤]

بيني وبينكِ ملّةٌ وكتابُها والشرق ينميني كما ينميك

١ — الشوقيات : ١/١٣٦

٢ — (حافظ وشوقي) لحسن كامل الصيرفي : ص ٤٦

٣ — الشوقيات : ١/ ١٩٨—٢٠٠

٤ — المسموك المرفوع

لم يُنقذ الإسلامَ أو يرفعْ له   رأساً سوى النفر الأُلى رفعوكـ

وفي البيت الأخير مبالغة تتجهم لحقائق التاريخ، ولكنه الهوى، ومن أين للهوى أن يراعي الحقيقة ويستكين لها، وحبك الشيء يُعمي ويُصم! وكذلك كان شوقي في تعلقه بالأتراك، حتى إذا وصف شجاعتهم في حروبهم لم يتأخر عن تفضيلهم على العرب[1]:

وماهيَ إلا دعـــوةٌ وإجابةٌ
أنِ التحمت والحربُ بُكرٌ وتغلبُ
فأبصرتُ مالم تُبصرا من مشاهد
ولا شهدت يوماً معدٌ ويعرُبُ

ومثل هذا القول من شوقي هوى تركي يتجاهل حقائق التاريخ العربي، ولندع الردّ على شوقي هذه المرة لصديقه الأمير شكيب أرسلان الذي يقول: « هنا جاشت الفكرة برأس شوقي فذهبت به إلى أبعد حدود المبالغة، فلا نزاع في أن الترك إذا ذكرت الشجاعة والصبر على الحروب كانوا في الذروة العليا، ولكن القول بأن مشاهدهم لم تشهدها معد ويعرب فيه نظر! ولعمري إن معداً ويعرب عندما فاضت جموعها على بلاد الله كانت تقاتل في ساحات لا يحصيها العدد، فبينا جيوشها تحاصر القسطنطينية كانت جيوش أخرى تفتح اسبانيا وجنوبي فرنسا، وأخرى تقاتل أمة البربر العاصية، وأخرى تتوغل في أفريقية، وجحافل

---

١ — الشوقيات: ١/٣٧

تغزو الهند ، وفيالق تغزو الخزر ، وجيوش فيما وراء النهر تغزو الأتراك في عقر دارهم ، وكل ذلك في وقت واحد ، لا تلهيهم حربٌ عن حرب ، ولا تشغلهم ساحة قتال عن ساحة قتال ! وكانت حرب الترك ساحة واحدة من تلك الساحات الكثيرة ، يستقلّ بها قائد مثل قتيبة بن مسلم الباهلي ، تجتمع عليه الترك من كل حدب ، فيوالي عليها الهزائم ، ويقودها بالخزائم ، وهو في قلة بالقياس إلى أمم الترك التي اجتمعت عليه من كل صوب ... ولا يُقال إن أمة من الأمم تقدر أن تبذّ العرب في ميادين القتال ، إذا كانت العرب مجتمعة على قلب واحد ، وما أُتي العربُ إلا من تقطّع ما بينهم ، وصعوبة مقادتهم لرئيس واحد ، وفي هذا يفضلهم الترك ، وبهذا سادوا عليهم![1] » .

ولكن شوقي صاحب هذا الهوى التركي الطاغي يُنفى الى الأندلس ، حيث يقضي خمس سنوات في جوار الأمجاد العربية التي خلفها العرب في فردوسهم المفقود ، وحيث يرى بعينيه ويلمس بيديه عظمة ما تركوا من آثار لا تزال باقية إلى اليوم ، لتشهد بخلود أصحابها ؛ ولقد رأينا شوقي في برشلونة منكباً على كتب التاريخ العربي والأندلسي ، يطالعها في نهم ، ويشغل فراغه بنظم حوادثها في تلك الأراجيز عن (دول العرب وعظماء الاسلام) ؛ وهكذا امتلأت نفسه بأمجاد العرب ، فتفجرت ينابيعها في أندلسياته وهو يصف فيها الآثار العربية التي تغالب الفناء ،

---

١ — شوقي أو صداقة أربعين سنة : ص ٢٢٢ — ٢٢٣

في قرطبة وغرناطة ، أو يتغنى بقصةعبد الرحمن الداخل صقر قريش.. وهكذا أمدته الأندلس بجو عربي عابق بأنفاس المجد، وغذّته بروح عربية جديدة ، تفخر كل الفخار بماضي العرب ، وتعتز بحضارتهم ، فلما عاد شوقي إلى وطنه بدأ اللون العربي يزداد ظهوراً في شعره ، حتى إذا مر بلبنان وزار سورية ، والتف الشباب القوميون العرب حوله يسألونه ألا يقصر روائعه على شعب مصر وحدها ،وأن يكون شاعر العالم العربي كله ، أجابهم قائلاً : « أيها الصحاب كأني بكم تأتمرون بي! لكنّكم ما تجاوزتم المكنون في نفسي[1] » . والحق أن صوت شوقي أصبح يدوّي في العالم العربي كله ، وأصبح غناء القومية العربية في كل صقع من أصقاعها، يُثير الهمم،ويُحرّك العزائم،ويصف الآلام والآمال.

في سنة ١٩٢٦ جاء شوقي يزور دمشق بعدثورتها الكبرى،فاحتفى به الشباب ، يكرمونه ويرددون قصائده ؛ وفي القصيدة القافيّة التي ألقيت في حفلة إعانة منكوبي الثورة حمل شوقي على المستعمرين ، وعجب من موقف فرنسا من الثورة السورية ، وهي التي قامت ثورتها الفرنسية الكبرى لتحرير الشعوب ، ثم راح شوقي ينصح الشعب السوري بأن يتابع جهاده في سبيل الوصول إلى الحرية[2]

بني سوريّةَ اطّرحوا الأماني وألقوا عنكم الأحلام ألقوا

---

١ — من مقالة الأمير مصطفى الشهابي (شوقي والنزعة العربية) : ذكرى الشاعرين ٤٦٥

٢ — الشوقيات ٢/٩٠

نصحتُ ونحن مختلفون داراً ولكن كلّنا في الهم شرقُ
ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ بيانٌ غيرُ مختلفٍ ونُطقُ
وقفتم بين موتٍ أو حياةٍ فإن رُمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان في دم كلّ حرٍ يد سلفت ودَيْنٌ مستحق
وللحرية الحمراء بابٌ بكلّ يدٍ مضرجة يُدق

وفي السنة نفسها يزداد شوقي شعوراً بالأخوّة العربية ، إذ يقول في المجمع العلمي العربي بدمشق ، عندما التقى أعضاؤه على تكريمه ، من قصيدة رائعة تفيض حماسة للعرب وماضيهم(١)

ونحن في الشرق والفُصحى ذوو رحِم
ونحن في الجرح والآلام إخوانُ

وجاء العام التالي (١٩٢٧) بما دفع شوقي بقوةٍ في اتجاهه العربي ، فقد التقت فيه الوفود العربية من كل قطر في العالم العربي لتبايع شوقي بإمارة الشعر ، في مهرجان تكريمي كبير ؛ ومنذ يوم المهرجان ازدادت الجذوة العربية في قلب شوقي اتقاداً ، وأحس بالفرحة طاغية من أن يجتمع شعراء العرب على تقديمه ، وأدرك عبء الدور الكبير الذي حمّلوه أمانته ، ليكون شاعر العرب جميعاً ؛ ومن مظاهر فرحة شوقي يوم المهرجان أن يتفقد الوفود العربية ويحصيها ، وأن يبحث عن وفد الحجاز فلا يجده(٢)

---

١ — الشوقيات ٢/١٢٥ ٢ — الشوقيات : ٢/٢٤٢ — ٢٤٣

يا عكاظاً تألّف الشرقُ فيه   من فلسطينه إلى بغدانه
افتقدنا الحجاز فيه فلم نعـ   ـثر على قُسه ولا سحبانه

ومن مظاهر إدراكه لدوره الكبير ، دور الشاعر القومي العربي، قولُه في قصيدة المهرجان نفسها

رب جارٍ تلفّتتْ مصرُ تُوليـ   ـه سؤالَ الكريم عن جيرانهْ
بعثتني مُعزياً بمــآقي   وطني أو مهنئاً بلسانه
كان شعري الغناءَ في فرح الشر   قِ وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلّفنا الجر   حُ وأن نلتقي على أشجانه
كلّما أن بالعراقِ جريحٌ   لمس الشرقُ جنبَه في عُمانه

وفي العام نفسه يقول شوقي في ذكرى استقلال سورية وذكرى شهيدها يوسف العظمة وإخوانه في ميسلون[1]

بني البلد الشقيقِ عزاء جارٍ   أهاب بدمعه شجنٌ فسالا
وما زلنا إذا دهت الرزايا   كأرحم ما يكون البيتُ آلا
سأذكر ما حييتُ جدار قبرٍ   بظاهر جلّقٍ ركب الرمالا
مقيم ما أقامت ميسلونُ   يذكّر مصرع الأسد الشبالا
ترى نور العقيدة في ثراه   وتنشق من جوانبه الخِلالا

ولقد أصبح شاعرُ العرب ينتهز كل مناسبة ليرسل الشعر القومي، متغنياً بآمال الشرق العربي ، باكياً آلامه ، ففي سنة ١٩٢٨ يقول في

---

١ — الشوقيات : ٢ / ٢٢٧ — ٢٢٩

رثاء يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف[1]

وما الشرق إلا أسرةٌ أو عشيرةٌ   تلمّ بنيها عند كُلّ مُصاب

وفي سنة ١٩٣٠ يقول في رثاء المويلحى[2] :

ابنُ مصرٍ[3] وإنما كل أرضٍ   تنطِق الضادَ مهدُهُ ورباعُهُ

إنما الشرقُ منزلٌ لم يُفرّق   أهله إن تفرّقت أصقاعُهُ

وطنٌ واحدٌ على الشمس والفُصـ   ـحى وفي الدمع والجراحِ اجتماعُهُ

وفي السنة نفسها يرثي الزعيم الدمشقي فوزي الغزي ، فيقول من قصيدة ألقيت في حفلة تأبينه[4] :

جرحٌ على جُرحٍ حنانَك جِلّقُ   حُمّلت ما يُوهي الجبال ويُزهقُ

صبراً أباةَ الشرق كلّ مصيبةٍ   تبلى على الصبر الجميل وتخلُق

من مبلغٌ عني شبولة جلّقٍ   قولاً يَبَرّ على الزمان ويصدُقُ

بالله جلَّ جلالُه ، بمحمدٍ   بيسوع ، بالغزّي لا تتفرقوا

قد تُفسد المرعى على أخواتها   شاةٌ تند من القطيع وتمرقُ

وفي سنة ١٩٣١ يرثي شوقي الزعيم الطرابلسي عمر المختار ، بطل النضال الليبي ، وشهيد الطغيان الايطالي[5]

---

١ — الشوقيات : ٣/٣٤

٢ — الشوقيات : ٣/١١٠

٣ — في الديوان أين مصر ، وهو تصحيف ظاهر

٤ — الشوقيات ٣/١١٩ — ١٢٢

٥ — الشوقيات : ٣/١٧ — ١٨

تلك الصحارى غمدُ كُلِّ مهنّدٍ أبلى فأحسن في العدو بلاء
وقبورُ موتى من شباب أميّةٍ وكهولهم لم يبرحوا أحياء
والمسلمون على اختلاف ديارهم لا يملكون مع المصاب عزاءَ

وفي السنة نفسها يموت الملك حسين، زعيم الثورة العربية، فيرثيه شوقي رثاءً حزيناً، ويشبه الحزن عليه بالحزن على صرعى المسلمين في بدر، ويُقيم من أجله المناحات في كل جانب من جوانب العالم العربي، ويشرك السماء مع الأرض في مآتمها على الحسين الهاشمي[1]:

لكَ في الأرضِ والسماء مآتمْ قام فيها أبو الملائك هاشم
المناحات في ممالك أبنا ئكَ بدريّةُ العزاء قوائمْ
تلك بغدادُ في الدموع وعمّا نُ وراءالسوادِ والشامُ واجمْ
والحجازُ النبيل ربعٌ مصلٍّ من ربوع الهدى وآخرُ صائمْ
واشتركنا فمصرُ عبرى وأبنا نُ سكوب العيون باكي الحمائمْ

والحسين هذا هو الشريف الهاشمي الذي هاجمه شوقي يوم كان شاعر القومية العثمانية، واتهمه بالعجز والخيانة، وندّد بثورته وحركته، وهو الملك حسين الذي يمجّده الآن شاعر العرب، ويثني على نضاله في خدمة العرب، ويطالب بتكريم جثمانه أجلّ تكريم

أنتَ كالحقِّ ألّفَ الناس يقظا نَ وزاد ائتلافَهم وهو نائمْ
حبذا موقفٌ غُلبت عليه لم يقِفْه للعُرب قبلكَ خادمْ

---

١ — الشوقيات: ٣/١٦٠ — ١٦٣

ذائداً عن ممالكٍ وشعوبِ ... نقلت في الأكف نقل الدراهم
اغسلوه بطيّبٍ من وضوء الرُ ... سْل كالوردِ في رُباه البواسم
وادفنوه في القُدس بين سليما ... نَ وداودَ والملوك الأكارم

وكذلك يبرز هذا المنعطف في اتجاه شوقي ، فقد كان شاعر الترك فأصبح شاعر العرب ، يبكي مصائبهم ، ويرثي أبطالهم حتى السنة التي مات فيها ، ففي عام ١٩٣٢ يغرق أحد الأمراء اليمنيين، فيعزّي شوقي إمام اليمن به ، ويجمع البلاد العربية على مشاركة اليمن في حدادها على الأمير العربي الغريق[1]

وباتت بصنعاء تبكي السيو ... فُ وتبكي القنا في عدن
وأعولَ نجدٌ وضج الحجازُ ... ومالَ الحسينُ فعزّى الحسن
عزاءً جميلاً إمام الحمى ... وهوّن جليل الرزايا يهُن
يجاملك العربُ النازحو ... ن وما العربيةُ إلا وطن
ويجمعُ قومك بالمسلمين ... عظيمُ الفروض وسمح السُّنَن
وأن نبيهمُ واحدٌ ... نبي الصوابِ نبيُّ اللّسن
ومصرُ التي تجمع المسلمين ... كما اجتمعوا في ظلال الركن
تعزّي اليمانين في سيفهم ... وتأخذ حصّتها في الحزن

ونلاحظ هنا كيف يربط شوقي دائماً العروبة بالاسلام ويجمع بينهما في وحدة متسقة متماسكة لا انفصام لها .

---

١ — الشوقيات : ٣/١٨٠

وآخر ماقاله أمير الشعراء هنا رثاؤه لحافظ وقوله فيه [1]

لبنانُ يبكيه وتبكي الضادُ من   حلبٍ إلى الفيحا إلى صنعاء
عربُ الوفاء وَفوا بذّمة شاعر   باني الصفوف مؤلف الأجزاء

وبذلك يكون شوقي منذ عودته من المنفى إلى آخر سني حياته قد ظلَّ شاعرالعروبة ، يغني فيأفراحها ، ويبكي في مناحاتها،ويرسل صوته الداوي من القاهرة ، فيتردد صداه في كل عاصمة من عواصم الأقطار العربية ، ويرويه في كل محلة خلق كثير ، وهكذاأصبح شوقي وتداً من أوتاد الوحدة العربية ، إذ شدّ قلب كل قطر من أقطارالعرب بالقاهرة ، وغدا شعره بحقٍ طليعة وجدانية للوحدة المنشودة ونشيداً حماسياً جامعاً يمهّد لها

— ٤ —

المنعطف الثالث في شاعرية شوقي أنه كان قبل المنفى شاعر الخلافة الدينية فأصبح بعده شاعر الوطنية المصرية .

كانت أوربا المسيحية في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين قد أعلنت على الخلافة العثمانية حرباً صليبية ، تقودها روسيا تارة ، ودول البلقان تارة أخرى ، وامتدت مخالب الاحتلال الانكليزي إلى مصر فافترستها ، واقتسم الفرنسيون والأسبان والطليان شمالي أفريقية ،

---

١ — الشوقيات : ٣/٢٦

« ونتج عن هذا — كما يقول الدكتور شوقي ضيف — أن استشعر المسلمون كرهاً للعالم المسيحي، فقد أحسوا بحرب صليبية مقنعة تضرب أوتادها، بل تغرز حرابها وسيوفها في صدر الشرق الإسلامي وفي أطرافه المختلفة، وتطلع المسلمون وسط هذه الظلمات إلى الترك والخلافة التركية يتمنون انتصارها وظفرها بأعدائها [١] ».

كان شوقي قبل نفيه يمثل في شعره ذلك العطف الاسلامي على الخلافة العثمانية، ويعبر بذلك عن الآمال الكامنة في نفوس الملايين من المسلمين، ويرضي بذلك أيضاً هوى أميره عباس، ومن هنا نقلّب الجزء الأول من الشوقيات فنجده طافحاً بتمجيد الخلفاء العثمانيين، وقد لاحظ الدكتور محمد حسين هيكل في تقديمه للشوقيات هذه الظاهرة حين رأى في الجزء الأول وحده ثماني عشرة قصيدة في الخلافة العثمانية والأتراك، تقابلها ثلاث قصائد فقط في العرب ومكة والرسالة النبوية [٢]

كان شوقي يُضفي على الخليفة العثماني ما كان أسلافه من الشعراء يضفونه على خلفاء المسلمين، منذ الراشدين إلى الفاطميين فالخليفة العثماني إمام يحمي حوزة الدين الحنيف، وهو تقي زاهد، وهو الهادي المهدي الذي يتقرّب كل مسلم إلى الله بالزلفى له، كما يقول لعبدالحميد [٣].

---

١ — شوقي شاعر العصر الحديث : ص ١٣٤

٢ — الشوقيات : الجزء الاول — المقدمة : ص ن

٣ — الشوقيات ١/٤٧

فلا زلت كهفَ الدين والهادي الذي
إلى الله بالزلفى له نتقربُ

والخليفة العثماني رمز لوحدة المسلمين واجتماع كلمتهم ، ولولاه لضاع ملكهم وتشتت شملهم[1] :

فلولاكَ مُلكُ المسلمين مضيعٌ ولولاكَ شملُ المسلمين شتاتُ

وكان شوقي يعلن دائماً أن حبه للإمام العثماني نزعة دينية خالصة من كل مطمع ، وأنه لم يبتغ من وراء ذلك عرض الحياة الدنيا[2]

أخلصتُ حبي في الإمام ديانةً وجعلته حتى الممات شعاري
لم التمس عرَض الحياة وإنما أقرضته في الله والمختـار

فهو أول مناضل عن حوض الخلافة ، حباً لله ، ورغبة في الحق والإصلاح[3] :

عهدُ الخلافة فيَّ أول ذائد عن حوضها ببراعه نفّاحِ
حبٌّ لذات الله كانَ ولم يزل وهوىً لذات الحق والإصلاح

غير أن النزعة الدينية لا يمكن أن تفسر لنا وحدها تعلّق شوقي بالخلافة الاسلامية ، وإيمانه بها ودفاعه عنها ، فهناك أسباب أخرى معقدة متشابكة ، ذلك أن الشاعر كان يؤمن بالخلافة حقاً ، غير أنه - في الوقت ذاته - كان يؤمن بقدرة الأتراك وحدهم على القيام بها ، أما أن يتخلى الأتراك عنها ليتولاها عربي ، هو في رأيه عاجز أعزل ، لا يملك حمايتها ،

١ — الشوقيات ١/٩١
٢ — الشوقيات : ٢/٤٦
٣ — الشوقيات: ١/١٠٨ — ١٠٩

فذلك مايرفضه شوقي، ويثور من أجله، في غير حذر ولا حيطة ولوكان ذلك العربي هاشمياً ! ولهذا جن جنون الشاعر عندما ألغى مصطفى كمال الخلافة ، وأشيع أن الشريف حسيناً يتهيأ لإعلان نفسه في مكة خليفة للمسلمين ، ولقد راح شوقي يتهم الشريف الثائر بالخيانة والعجز ، ويُعلن في صراحة كاملة أن تنحي الأتراك عن الخلافة أطمع فيها من لا يصلح لها ، ويشبه الشريف حسيناً بمسيلمة الكذاب [1] ! وهذا يؤكد لنا أن إيمان شوقي بالخلافة ليس مرده إلى نزعته الدينية وحدها، بل هنالك جملة العوامل التي أشرنا إليها من قبل عند دراسة طبيعة نزعته العثمانية [2]، ولكن شوقي يريد أن يجعل تعلقه بالخلافة مقصوراً على السبب الديني وحده ، فلا بد إذاً من دراسة هذه النزعة الدينية عنده وتحديد طبيعتها.

لم ينشأ شوقي — كما عرفنا — نشأة دينية ، ولقد شهد لنا معاصروه أنه « كان في شباب السن مستهتراً بلذائذ الدنيا ، مسرفاً في الإصابة مما يطيب له منها ، لا يتأثم في هذا ولا يتكلّف مداراة الناس ، فبلغ فيه حداً يشبه الإباحية » كما يقول الشيخ عبد العزيز البشري [3] ، وقد اعترف شوقي نفسه لكاتبه أنه « كان قبل الحرب يشرب كمية كبيرة من الويسكي [4] »، ولا يمكننا أن نستغرب مثل هذا السلوك من شاعر

---

١ — الشوقيات ١/١٠٩

٢ — انظر ما تقدم ص ١٩٠ — ١٩٣

٣ — مجلة الرسالة : عدد ٣٧ سنة ١٩٣٤ ص ١٦٠

٤ — اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ص ٧٦

نشأ في أحضان الترف ، وخبر ما كانت القصور الحاكمة في أيامه تنام عليه من ملذات وشهوات ، وما أضافته إلى ذلك أوربا خلال سنوات دراسته فيها ، فكل هذه العوامل كانت تباعد بين الشاعر ومقتضيات الفكرة الدينية وتجسيمها سلوكاً في الحياة ، كما كانت تقر به من نمط سلوكي متحرر بلغ حداً يشبه الإباحية كما يقول البشري !

لم يكن شوقي إذاً عند نفسه يقدر آنذاك فروض الدين حق قدرها ، أما ما نجده في شعره من صورة مناقضة كل المناقضة لانحرافه واستهتاره فمرده أولاً إلى العاطفة الدينية النابعة من أعماق وجدانه ، ثم هو أيضاً أثر من آثار الوقار الرسمي الذي كان القصر يضطره إليه ، للظهور أمام الشعب بالمظهر الذي لا يستثيره ؛ ولقد أراد الخديوي عباس أن يصحب شاعره إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، فتظاهر شوقي بالقبول ، وسار في ركب الأمير ، حتى إذا بلغ (بنها) اختفى في منزل أحد أصدقائه ، ولما رجع عباس من الحجاز وأخذ يلوم شاعره على هربه ، لم يجد شوقي ما يعتذر به غير قوله « كلّ شيء إلا ركوب الجمال يا أفندينا ![1] » وقد ردد مثل هذا القول في القصيدة العامرة التي قالها مهنئاً أميره بحجته[2] :

ويارب لو سخّرت ناقةَ صالحٍ لعبدك ما كانت من السلَّسات

ويارب هل سيارةٌ أو مطارةٌ فيدنوُ بعيد البيد والفلوات

وشاء ربك ألا يرحل شوقي عن الحياة إلا بعد أن حقق الله له

---

١ – أبي شوقي : ص ١١
٢ – الشوقيات : ١/٩٦

الأمنية ، فأصبح الحج ميسراً ـ أو كاد ـ بالسيارة والطائرة ، ولكن الشاعر لم ينشط لتأدية الفريضة ! فما هو إذاً سر هذا الوجد الديني المتأجج الذي يشع في قصيدة التهنئة المذكورة ،ولماذا يمجّد الشاعر فيها فريضة الحج خاشعاً باكياً متذللاً ؟ إن « الذي لاشك فيه أن موقف شوقي من الحج كان على هذه الصورة موقف متدين منحل ، لايريد أن يتجشّم في الله جهداً ، أو يغبّر قدماً ، أو يغيّر عادة![1] »

كل ماقدمناه يؤكد لنا أن الفكرة الدينية كانت عند شوقي -- وبخاصة قبل نفيه ــ عصبية عاطفية يمنحها من حماسته الصدق والحرارة، دون أن يكون لها في سيرته العملية أيّ صدى .. وهكذا فعلى الرغم من أن الفكرة الدينية عند شوقي قبل منفاه لم تكن نزعة مسايرة لطبيعة سلوكه في حياته ، فإننا نجد الشاعر حريصاً كل الحرص على التغني بالدين في شعره ، والإشادة بفضله، وإجلال آدابه، ونشر أمجاده، وامتداح رسوله ، والصفوة المختارة من أبطال المسلمين ، والدعوة إلى الفضائل الروحية ، ويكفي أن نذكر أن أشهر قصائده الدينية (نهج البردة) نظمها تذكاراً لحج الخديوي عباس ، في تلك الرحلة التي هرب منها شوقي ، على شدة رغبة الأمير باصطحابه معه !

كان شوقي إذاً كثير التغني ـ في شعره ـ بفكرته الدينية ، معلناً إيمانه بالله ،وتمجيده لرسوله،وطمعه في نيل الغفران عن جليل ذنوبه[2]

---

١ -- الدين والأخلاق في شعر شوقي لعلي النجدي ناصف ص ١٥٣

٢ -- الشوقيات : ١/٢٤٤

إن جل ذنبي عن الغفران لي أملٌ ... في الله يجعلني في خير مُعتصمِ
وإن تقدَّم ذو تقوى بصالحةٍ ... قدّمتُ بين يديه عبرة الندمِ
لزمتُ باب أمير الأنبياء ومن ... يُمسك بمفتاح باب الله يغتنمِ
محمدٌ صفوةُ الباري ورحمتُـه ... وبُغية الله من خَلق ومن نَسمِ

وكان شوقي في شعره قبل نفيه حريصاً أبلغ الحرص على احترام مظاهر الدين وتوقيرها، وكان إذا أقام في شعره صراعاً بين نزعته الدينية وأي ميل آخر من ميوله جعل الغلبة دون تردد للفكرة الدينية ، وهذا مثال يظهر فيه بوضوح انتصار الدين وتقديمه على الوطنية في شعر شوقي قبل المنفى : يقول الشاعر في القصيدة التي نظمها في مطلع الحرب العالمية الأولى وأهداها الى المستشرق الانكليزي مارجوليوث Margoliouth مخاطباً النيل[1]

لي فيك مدحٌ ليس فيه تكلّفٌ ... أملاه حبٌ ليس فيه تملّقُ
ممّا يحمّلنا الهوى لك أفرخٌ ... سنطيرُ عنها وهي عندك تُرزق
تهفو إليهم في التراب قلوبنا ... وتكاد فيه بغير عرقٍ تخفق
تُرجى لهم والله جلّ جلاله ... منا ومنك بهم أبرُّ وأرفق

وهذه الأبيات تصور لنا الشاعر رجلاً محباً لمصر ونيلها ، وقد زاده حباً بوطنه أنّ له أولاداً صغاراً على أرضه، سيتركهم في رعاية الوطن ويرحل عنهم، والوطن ـ ورمزه النيل هنا ـ مرجوٌ لهم ، ولكن الله جل جلاله خيرٌ

١ — الشوقيات: ٢/٨٧

لهم من الوطن وأرفق منه لرعايتهم والبر بهم ، وبهذا تتقدم الفكرة الدينية على الفكرة الوطنية .

ويجيء المنفى بسنوات خمس طوال من الغربة والعذاب والألم والحنين ، حتى يكاد الشاعر ييأس من العودة إلى وطنه ، فلما انقشعت المحنة ، واستقبل الوطن ابنه العائد بفيض من الحماسة والتكريم ، اشتعلت جذوة الوطنية في قلب الشاعر ، وراحت النزعة الوطنية تزاحم كل ميل آخر ، حتى لامست في شعره ذروة عاطفته الدينية ، وكادت توازيها ، فاذا هو ينشد في أولى قصائده بعد المنفى[1]

ويا وطني لقيتُك بعد يأسٍ كأني قد لقيتُ بك الشبابا
ولو أني دُعيتُ لكنت ديني عليه أقابل الحتم المجابا[2]
أدير إليك قبل البيتِ وجهي إذا فُهتُ الشهادةَ والمتابا

فهذا كلام صريح لا يمكننا أن نلتوي به ، أو أن نوجهه غير الوجهة التي يريدها الشاعر ! والشاعر يريد أن يعلن أن الفكرة الوطنية أصبحت تجور على الفكرة الدينية عنده ، ولهذا فهو يتجه عندما ينطق بالشهادة إلى وطنه قبل أن يتجه إلى القبلة والبيت في مكة ، وبذلك تبرز لنا صورة صارخة للتطور في اتجاهات الشاعر وميوله .

لقد أصبح الشاعر العائد من منفاه شاعر الوطنية المصرية ، وأصبح

---

١ — الشوقيات : ٥٦/١

٢ — ولو أني دُعيت إلى الموت ، والحتم المجاب هو الموت

حب الوطن في تقديره ديناً وقِبلة وصلاة وعبادة ، وقد أكثر من تكرار هذه المعاني في شعره بعد المنفى ، ففي سنة ١٩٢٠ يقول[١]

واسمع بمصرَ الهاتفيـ ـن بمجدها والهاتفات
والطالبين لحقّها بين السكينة والثبات
والجاعليها قِبلةً عند الترنّم والصلاة

وفي سنة ١٩٢٤ دعا المصريين إلى المغالاة في تنظيم الوطن وتقديسه[٢]:

يافتيةَ النيل السعيد خذوا المدى واستأنفوا نَفَس الجهاد مديدا
وجه الكنانة ليس يُغضب ربكم أن تجعلوه كوجهه معبودا

ومهما نحاول أن نردّ مثل هذه الأقوال من شوقي إلى المجاز والحماسة والمغالاة فان لها دلالتها الكبرى على الاتجاه الوطني الذي صار إليه الشاعر بعد العودة من منفاه ، ذلك أن الغربة الطويلة وآلامها أوقدت الحنين بين أضلاعه ، وأضرمت الحس الوطني القومي وأيقظته من نومه ، ففتح شوقي عينيه ليرى نفسه طليقاً من القيود التي كانت تكبله ، والتي كانت تحول دون انطلاقه وإرسال صوته ، وليرى الثورة الوطنية تؤج في قلب كل مصري ، ولا يجد الشاعر الذي يصور للأجيال القادمة بطولاتها .. لقد أشرقت الثورة على مصر عام ١٩١٩ وشوقي غائب في منفاه ، فلم

---

١ — الشوقيات : ٣/٥٤
٢ — الشوقيات ١/١٢٧

يشارك في إضرام نارها ، وإنه لشديد الأسف لغيابه[١]

يومُ البطولة لو شهدتُ نهاره   لنظمتُ للأجيالِ مالم يُنظم
غُبنت حقيقتُه وفات جمالُها   باع الخيال العبقري الملهم

ولكن الذي لانستطيع أن نقطع فيه هو الجزم بأن شوقي كان يسير في ركاب الثورة قبل أن يعاني هذا التطور الشامل في شخصيته وشاعريته ، فلولا تحرره من أغلال القصر ، ولولا انهيار الخلافة العثمانية وانقطاع الصلة بين الأتراك ومصر ،ولولا النفي وآلامه وتطويره لكثير من مفاهيم الشاعر السابقة، لولا هذا كله لبقي شوقي عند حدوث الثورة معزولاً عنها ، أو لوقف منها في المكان الذي يريده له صاحب القصر ، ولو كان في ذلك عداء للثورة والوطنية والشعب !ولسنا نرسل الحكم هنا دون تبصّر ؛ ألم يكن شوقي في مصر عندما قامت الثورة العرابية ، وكان عرابي يمثل الوطنية الشعبية المصرية الحانقة على الظلم والاحتلال والفساد الداخلي ، وكان الخديوي توفيق يمثّل الخيانة السافرة ، ويفتح بيديه أبواب مصر للاستعمار الانكليزي ، ويرحب بحماية الأجنبي له ، وكان الخليفة العثماني يجافي الحركات الوطنية في مصر ، ويُصدر قراراً ـ بدسيسة من الانكليز ـ بأن عرابي عاص خارج[٢].. بلى لقد كان شوقي في مصر وشهد طرد الزعيم الوطني من وطنه ، كما

---

١ — الشوقيات ٢/٢٣٥

٢ — (وطنية شوقي) للدكتور الحوفي : ص ١٧٤

شهد عودته من منفاه سنة ١٩٠١ ، ووقف منه في المكان الذي يريده عباس له ، وأخذ يكيل له السباب والتشهير[١] :

صغارٌ في الذهاب وفي الإياب أهذا كلُّ شأنكَ يا عرابى ؟

ولم يترك نقيصة من خيانة وجبن وعار لم يصف بها الزعيم الثائر ، إرضاء لأميره وخليفته ، ولو كان شوقي يلتزم آنذاك النصفة والحق للاذ ـ على أقل تقدير ـ بالصمت كما لاذ صبري وحافظ .

الحق أن الشاعر العائد من منفاه شاعر جديد ، مستعد لحياة جديدة ، يكون فيها شاعر الوطنية المصرية ، يخوض بشعره في سبيلها غمار الأحداث ، فيمجّد ثورتها ، وينظم القصائد العامرة ، داعياً قومه إلى التمسك بالاستقلال التام وبوحدة وادي النيل ، ومستنهضاً عزائمهم لبناء عزة وطنهم في التعليم والجيش والاقتصاد ، ومندداً بانقساماتهم الحزبية ، وحاضاً على وحدة الشعب ، مسلميه وأقباطه ، ومطالباً بالدستور والحكم الشعبي ، ولسنا بحاجة إلى تقديم أمثلة من شعره على ذلك ، فشعره بعد المنفى كله ينبع من ضميره الوطني المستيقظ ، ويقص قصة الشعب المصري الذي أيقظته الثورة فراح يتلمس الطريق إلى استقلاله وعزته وكرامته .

---

١ ـ لشوقي في التشهير بعرابي وثورته ثلاث قصائد لا نجدها في ديوانه بأجزائه الأربعة ، وقد جمعها الدكتور الحوفي من المجلات التي نشرتها آنذاك .(انظر وطنية شوقي : ١٨٣-١٩٢)

يجب ألا نفهم مما قدمناه أن شوقي انقلب من منفاه شاعراً وطنياً مناضلاً ، فصوت شوقي يظل كعهده دائماً مدارياً رفيقاً هامساً ، فهاهو ذا - مثلاً - يطالب الملك فؤاداً بالدستور - وكان الملك قد أعلن قبيل ذلك عزمه على إقامة الحياة الدستورية في مصر[1] - فلنسمع صوت شوقي ، خفيضاً ناعماً ، يستجدي أبا الفاروق ، ويعد الدستور هبة ومنة[2] :

يؤمّننا على الدستور أنّا ... نرى من خلف حوزته فؤادا
أبو الفاروق نرجوه لفضلٍ ... ولانخشى لِما وهب ارتدادا
نناجيه فنسترعي حكيماً ... ونسأله فنستجدي جوادا

ويبين لنا ضعف صوت شوقي إذا رحنا نقارنه بزمجرة شاعر آخر ، وجرأته في مخاطبة الخديوي ، ومطالبته بالدستور[3]

كل الممالك نُوِّلت ماترتجي ... من أنعم الشورى ومُلكك مطلق
مُر بالذي صرحت قبلُ بهوقُل ... واصدُق فمثلُك من يقول ويصدُق
عوّذت مجدكَ بالكنانة أن يرى ... آمال قومك فيك لاتتحققُ

---

١ - انظر : (كتب وشخصيات) لسيد قطب : ص ٢٧٨ ، ويقول العقاد : « كان شوقي يحس الوطنية المصرية كما يحسها التركي المتمصر من طبقة الحاكمين أو المقربين إلى الحكومة .. فما نصر مذهبا قط بين مذاهب السياسة الوطنية إلا في إبان دولته القائمة أو في الوقت الذي يأمن فيه سوء العاقبة » (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي : ص ١٨٤ — ١٨٦)

٢ - الشوقيات ٤/٧

٣ - ديوان اسماعيل صبري : ص ١٧١

كن راعياً يرعى الأسود فمن رعى غنماً يبت يخشى الذئاب ويفْرَقُ

إنه صوت اسماعيل صبري يجلجل في وجه الخديوي عباس ، وبين صوتي شوقي وصبري هاهنا مدى بعيد !

— ٥ —

ننتهي من دراستنا أثر الأندلس في تطور شخصية شوقي وفنه إلى أن المنفى ، بما أتاح للشاعر من زمن وحرية وألم ومجاورة للمجد العربي ، قد أثار في روح شوقي العربي المسلم قوى جديدة حرّكت تجربته الشعرية في عنف ، وسهّلت له سبيل التطور والحياة ، ومهّدت له الطريق إلى التجاوب مع أمته وعصره .

لقد كان شوقي قبل منفاه شاعراً بلا رسالة واضحة الأهداف بيّنة المقاصد ، فأصبح بعد تجربة المنفى شاعراً ذا رسالة قومية وطنية ؛ وكان شوقي قبل المنفى شاعر عاطفة خاصة فردية ، تتمسح بالقصر ، ولا ترى غير هواه ، فأصبح بعد المنفى شاعر العاطفة الشعبيه العامة ، ليس في مصر وحدها ، بل في العالم العربي الاسلامي كله ؛ وهكذا كان المنفى مخاضاً نفسياً أدرك شوقي بعده حقيقته وذاته ، وكان قبله حائراً ضالاً ضائعاً

إن شعر شوقي الشعبي والقومي والوطني هو الذي ينبض حقاً بالتجاوب بين الشاعر وأمته ، وهو الذي يؤكد لنا أن شوقي شاعر عاش في العصر الحديث ، فوعى آمال أمته وآلامها ، فغنّاها ، وهز

بغنائه النائمين ليلحقوا بموكب الحضارة ، وينفضوا عنهم الأغلال والخمول ، وكانت قصائده الشعلة الملتهبة التي أنارت الطريق إلى النهضة والعزة والاستقلال . وهذا الشعر كله هدية المنفى ، أما شعره في الأسرة العلوية والأتراك والخلافة العثمانية فهو شعر تاريخي ، يستمد مقوماته من الظروف السياسية التي كانت مخيّمة على الشرق العربي والعالم الاسلامي إلى آخر الخمس الأول من القرن العشرين ، والتي تبدّلت بعد الحرب الكونية الأولى تبدلاً كلياً

وهذا كله يؤدي بنا إلى القول : إن المنفى الذي شكا الشاعر ويلاته وأهواله كان نعمة كبرى على الأدب العربي الحديث ، فقد استطاع أن ينقذ أكبر شعراء عصره من الضلال والحيرة والتيه ، وأن يستخلصه لأمته ووطنه ، وأن يهديه الصراط المستقيم الى بقائه وخلوده .

★ ★

الفهرس

تنبيه : في ترتيب الفهارس اعتبرت الكلمات التي تؤلف الاسم وحدة مركبة بإهمال (أل) التعريف أينما وردت ، واعتبار كلمات (ابن ، أب ، بنو ، أم) أساسية في صلب الاسم ؛ وعند تسلسل الأرقام عمدنا إلى ذكر أولها وآخرها ووضعنا بينهما خطاً ؛ وقد ميزنا بين الأرقام ، فما سُبق بـ (ح) منها يعني ورود العلم في الحاشية

١ — فهرس الأعلام

(أ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

★ ★

٢ — فهرس البلدان والأمكنة

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(د)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

★ ★

٣ ـ فهرس أسماء الكتب

الواردة في المتن

★ ★

٤ ـ المصادر والمراجع

أ ـ الكتب العربية

١ ــ أبحاث ومقالات لأحمد الشايب مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٦

٢ ــ أبي شوقي لحسين شوقي مطبعة مصر ١٩٤٧

٣ ــ اثنا عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء لأحمد عبدالوهاب (أبي العز) مصر ١٩٣٢

٤ ــ أدب وتاريخ الدكتور محمد صبري الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧

٥ ــ الأسمار والأحاديث للدكتور زكي مبارك مصر ١٩٣٩

٦ ــ أسواق الذهب لشوقي مطبعة الهلال ١٩٣٢

٧ ــ أطباق الذهب للأصفهاني مطبعة مصر ١٣٢٥ هـ

٨ ــ أطواق الذهب للزمخشري

٩ ــ أمالي المرتضى بتحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم مصر ١٩٥٤

١٠ ــ أميرة الاندلس لشوقي مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢

١١ ــ أمير الشعراء شوقي بين العاطفة والتاريخ لمحمد خورشيد القدس مطبعة بيت المقدس، ١٩٣٢

١٢ ــ تاريخ الفكر العربي لاسماعيل مظهر مصر ١٩٢٨

١٣ ــ تاريخ المسألة المصرية لتيودور رتشتين ترجمة عبادي وبدران مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦

١٤ ــ حافظ وشوقي لحسن كامل الصيرفي مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٤٩

١٥ ــ حافظ وشوقي للدكتور طه حسين الطبعة الثالثة مصر ١٩٥٥

١٦ ــ الحديقة لمحب الدين الخطيب المطبعة السلفية ــ القاهرة ١٣٤٩ هـ

١٧ـ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية لشكيب أرسلان مصر ١٩٣٦—١٩٣٧

١٨ — حياتنا التمثيلية لمحمد تيمور مطبعة الاعتماد — القاهرة ١٩٢٢

١٩ — دول العرب وعظماء الاسلام لشوقي مطبعة مصر ١٩٣٣

٢٠ — الديوان لعباس العقاد وابراهيم المازني الجزء الاول ـ الطبعة الثانية مصر ١٩٢١

٢١ — ديوان ابن زيدون شرح الكيلاني وخليفة الطبعة الاولى مصر ١٩٣٢

٢٢ — ديوان اسماعيل صبري مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر ١٩٣٨

٢٣ — ديوان البحتري مطبعة الجوائب — القسطنطينية ١٣٠٠ ﻫ

٢٤ — ديوان حافظ ابراهيم مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٧

٢٥ — ديوان المتنبي بشرح العكبري بعناية السقا والأبياري وشلبي مصر ١٩٣٦

٢٦ — الدين والأخلاق في شعر شوقي لعلي النجدي ناصف مصر ١٩٤٨

٢٧ — ذكرى الشاعرين جمعه أحمد عبيد — دمشق ١٣٥١—١٣٥٢ﻫ

٢٨ — رسالة الغفران للمعري بتحقيق بنت الشاطىء ، دار المعارف بمصر ١٩٥٠

٢٩ — رقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب — تونس ١٣١٦ ﻫ

٣٠ — رواية قمبيز في الميزان لعباس محمود العقاد مطبعة المجلة الجديدة ـ بدون تاريخ

٣١ — السفر إلى المؤتمر لأحمد زكي بولاق ١٨٩٣

٣٢ — شاعرا العروبة شوقي وحافظ لعبد السميع المصري مصر

٣٣ — شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي لعباس محمود العقاد ، مصر ١٩٣٧

٣٤ — الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث لمصطفى السحرتي — مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٤٨

٣٥ — شوقي لانطون الجميل مطبعة المعارف ـ مصر

٣٦ — شوقي أو صداقة أربعين سنة لشكيب أرسلان مصر ١٩٣٦

٣٧ — شوقي شاعر العصر الحديث للدكتور شوقي ضيف دار المعارف بمصر ١٩٥٣

٣٨ — الشوقيات الجزء الأول المطبوع سنة ١٩٠٠

الشوقيات الطبعة القديمة « نظم شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية »

الشوقيات الطبعة القديمة الثانية
الشوقيات الجزء الاول مطبعة مصر
الشوقيات الجزء الثاني مطبعة مصر
الشوقيات الجزء الثالث مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦
الشوقيات الجزء الرابع مطبعة الاستقامة بالقاهرة

٣٩ — العمدة لابن رشيق القيرواني حققه محمد محي الدين عبد الحميد مصر ١٩٣٤

٤٠ — قصص الحمراء لواشنطون ايرفنج — ترجمة ابراهيم الأبياري دار المعارف بمصر ١٩٥٥

٤١ — كتب وشخصيات لسيد قطب مطبعة الرسالة ١٩٤٦

٤٢ — اللزومات : للمعري (لزوم مالايلزم) مطبعة التوفيق بمصر ١٩٢٤

٤٣ — لسان العرب ـ طبعه دار صادر ودار بيروت

٤٤ — محاضرات عن مسرحيات شوقي للدكتور محمد مندور — مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ١٩٥٥

٤٥ — المسرحية في الأدب العربي الحديث الدكتور محمد يوسف نجم ـ دار بيروت ١٩٥٦

٤٦ — المسرحية في شعر شوقي لمحمود حامد شوكت القاهرة ١٩٤٧

٤٧ — المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٩

٤٨ — الموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك ـ مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ١٩٢٦

٤٩ — الموشحات الأندلسية (مناهل الادب العربي) مكتبة صادر بيروت ١٩٤٩

٥٠ — نفح الطيب للمقري ـ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ مصر ١٩٤٩

٥١ — النقد الأدبي لأحمد امين ـ الطبعة الثانية : مصر ١٩٥٧

٥٢ — وطنية شوقي للدكتور أحمد محمد الحوفي مصر ١٩٥٥

٥٣ — وفيات الأعيان لابن خلكان — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مصر ١٩٤٨

ب ـ المجلات

٥٤ ـ الكتاب السنوي لجماعة الأبحاث في الجامعة السورية عام ١٩٥٠
٥٥ ـ مجلة الرسالة عدد ٣٧ سنة ١٩٣٤
٥٦ ـ مجلة الشهاب الدمشقية : الأعداد ٤٦ ـ ٥٢ سنة ١٩٥٦
٥٧ ـ مجلة الكتاب (عدد خاص عن شوقي وحافظ) الجزء ١٠ السنة الثانية اكتوبر ١٩٤٧
٥٨ ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ٣٤ العدد ١ : ك٢ ١٩٥٩

ج الكتب الفرنسية

٥٩ — La Grande Encyclopédie
Par une société de savants
Paris T: 16

٦٠ — L'Espagne musulmane au Xème siècle
Par E. Lévi - Provençal
Paris 1932

٦١ — L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930
Par Henri Pérès
Paris 1937
«وكنا نرمز لهذا الكتاب في الحواشي غالباً بقولنا: اسبانيا كما رآها السياح المسلمون..»

٥ ـ فهرس الموضوعـــات

★ ★

الفصـــل الثاني

أدب شوقي في المنفى

★ ★

الصفحة

الفصـــل الثالث

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	٥	صرفة	صرف
١٢	٨	أناط	ناط
٢٠	١١	القتومة	القُتمة
٢٤،١٠٠،١٠١	١٦،١١،١٥	النسائم	الأنسام
٣٤،٢٨	١٤،١٩	L'gspagne	L'Espagne
٣٦	١١	العالم الاسلامي	في العالم الاسلامي
٤٤	١٢	فظلت القصر	وظل القصر
٤٩	٣،١٦	الخديوي	السلطان
٦١	٧	الُقسس	القسوس
٨٦	١	خَلْتُ	خلْتُ
١٠١	١٢	دكي	زكي
١٤٠	١	إلى يتلمسوا	إلى أن يتلمسوا
١٤٢	١٧	عمق	عميق
١٥٢	٨	الصدفة	المصادفة
١٥٦	٢	فيا لمفارقٍ	فيا لَمفارق
١٩٢	٢	حسين	حسيناً

وهناك هنات مطبعية أخرى طفيفة يسهل تصويبها

CHAWQĪ EN ESPAGNE

Sa vie et ses œuvres d'exil

PAR

Saleh ACHTAR

Docteur ès - Lettres
Professeur à l'Université de Damas

Imp. de l'Université de Damas
1959